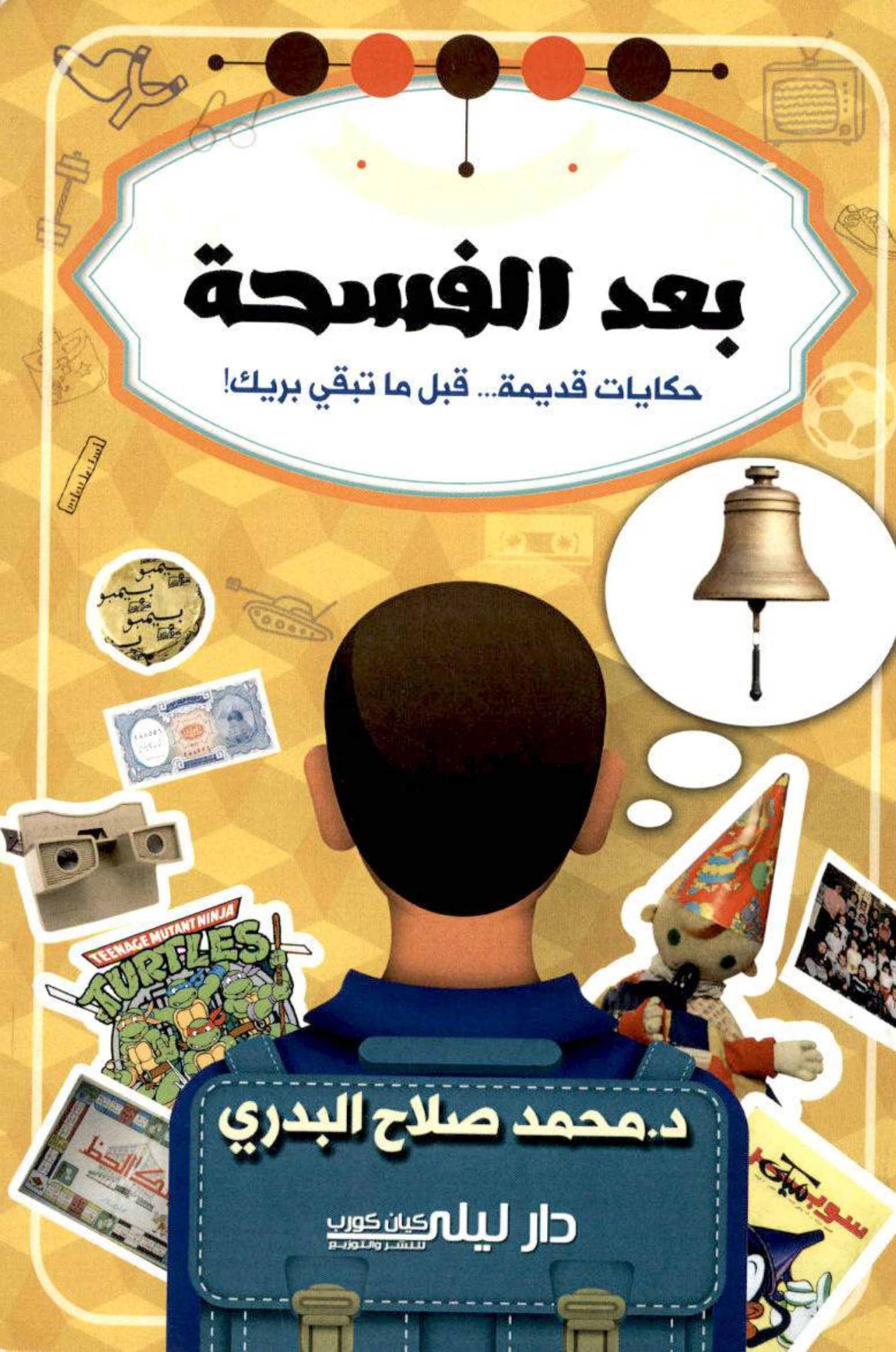

بعد الفسحة
حكايات قديمة... قبل ما تبقي بريك!
د.محمد صلاح البدري
دار ليلى كيان كورب للنشر والتوزيع
TEENAGE MUTANT NINJA TURTLES

بعد الفُسحة!

حكايات قديمة.. قبل ما تبقى «بريك»!

د. محمد صلاح البدري

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

الكتاب:
بعد الفسحة
المؤلف:
د. محمد صلاح البدري
رقم الإيداع:
2015/19288
★★★
الغلاف:
إيمان صلاح
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002)- 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

د. محمد صلاح البدري

بعد الفُسحة!

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

البعض لم يعُد يملك شيئًا سوى ماضيه.. فلا تنسوا ماضيكم أبدًا.. فقد تكتشفون يومًا أنه كل ما تملكون.

د. محمد صلاح البدري

إهداء..

لأنها أول من كتب حرفا قرأته.. فهو لها..

ولأنها أول من قرأ ما أكتب.. فهو لها..

ولأنها كانت وما زالت السبب الرئيسي لكل شيء حققته..

اهدي إليها هذا العمل..

إلي أمي.. لأنها أمي!!..



مقدمة لا بد منها

إنها سنوات الدراسة.. قد تكتشف إذا فتشت في ذاكرتك أنك قد نسيت الكثير منها.. بل إنك قد تكتشف أنك قد محوت من ذاكرتك كل ما كان قبل دراستك الجامعية.. على الرغم من أن هذه السنوات هي السبب الأول لتشكيل عقلك حتى الآن..

إنه الزمن الجميل.. حيث لا مسئوليات سوى الواجب المدرسي.. ولا أجمل من يوم الخميس.. حين تكتشف أنك حر في ألا تستذكر دروسك اليوم..

إنها عصابات الفسحة التي كانت تتشكل يوميًا.. والتي كنت تتودد إلى هذا الطفل السادي الذي يتزعمها لتصبح عضوًا فيها.. أو ربما كنت أنت ذلك الطفل السادي..

إنها ذكريات مدرستك الابتدائية التي ما زلت كلما مررت من أمامها تبتسم ابتسامة خفيفة.. وأنت تصف بفخر كيف أن لك صولات وجولات كثيرة بها..

لم يكن الأمر سهلاً.. فأنت تفتش في أعماق ذاكرتك لتكتشف أنك كنت تحيا حياة أخرى.. مع أناس آخرين.. في زمن آخر.. لكنه كان أجمل بكل تأكيد..

إنها محاولة لرسم بسمة خافتة على وجهك.. وأنت تتذكر أساتذتك القدامى.. وزملاءك الذين لا تدري أين هم الآن..

سوف تتذكر مدرس اللغة العربية الذي كنت تهابه.. ولكنك كنت تحبه في الوقت نفسه.. كلنا لدينا هذا الرجل.. كلنا لدينا «أستاذ رمضان» ما..

سوف تكتشف ابتسامة خافتة ترتسم خفيةً على وجهك وأنت تتذكر مدرس الألعاب في مدرستك الإعدادية.. كم كان متجهمًا في طابور الصباح..

سوف تذكر دروسك الخصوصية في المرحلة الثانوية.. كم كانت تحمل ذكريات حميمة..

سوف تذكر مدرسيك الذين صاروا أصدقاءك.. أو الذين كنت تعتبرهم كذلك حتى وأنت ما زلت طفلاً يحبو بجوارهم..

إنه كتاب يحمل ذكرياتك التي عشتها في ماضٍ بعيد.. لكنه ما زال داخلك.. حتى لو حاولت أن تنكره..

إنه كتاب يذكرك بـ«ماما نجوى» وصديقها «بقلظ».. أو بـ«بابا ماجد».. قد تشم بين صفحاته رائحة «هند والدكتور نعمان».. أو تبتسم وأنت تتخيل «يسرية» وهي تهتف في تشفٍّ واضح: «أنا يسرية يا ممدوح».

إنها اللحظة التي تشعر فيها أنك ترغب في الاختباء بين أحضان الكبار.. بل وربما البكاء.. ولكنك تكتشف الحقيقة المفزعة.. أنك قد صرت من

الكبار.. فلا يمكنك الاختباء..

إنها كلمة شكر لمن شكلوا عقولنا وشخصياتنا.. ولمحة من الماضي الجميل الذي نتمنى أن نعود إليه..

في النهاية.. بقي أن أقول: إن الأشخاص الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب هم أشخاص حقيقيون.. والأحداث التي يسردها أيضًا حقيقية تمامًا.. قد يكون هناك تغيير في «بعض» الأسماء.. وذلك لظروف مختلفة سوف تلاحظها عزيزي القارئ.. وعلى رأسها أنني لم أستطع الوصول إلى كل من ورد ذكرهم في الكتاب لأحصل على موافقتهم.. ولهذا فقد قمت بتغيير بعض الأسماء دون أن أغير شيئًا من الأحداث.. ولكن يكفي أن تعرف أنهم ما زالوا أحياء.. وقد يقع هذا الكتيب بين أيديهم يومًا فيقرأونه ويذكرونني كما أذكرهم.



مقدمة «ثانية»

كثيرًا ما أحمد الله أن أحدًا لم يتدخل في تشكيل طريقتي في التفكير والحياة.. فكانت نتيجة ذلك أن تشكلتُ ذاتيًّا.. مثلي مثل كثيرين من جيلي..

بدأ الأمر حين أحضر لي والدي – رحمه الله – مجلة زاهية الألوان عندما عاد من العمل في يومٍ ما.. عرفتُ فيما بعدُ أنها تُدعى «ميكي».. فعشقت ألوانها وقصصها.. وفتحت شهيتي لأقرأ كل ما هو مصور مثلها.. فلم تسلم كل المجلات الأخرى مني.. مثل «سمير» – التقليد المحلي – و«ماجد» – التقليد العربي.

ثم تفتحت عيناي على سلاسل «رجل المستحيل» و«ملف المستقبل».. ظللت وجيلي بالكامل نرى في أدهم صبري المثال لرجل المخابرات.. ونتخيل حالنا بعد عشرين عامًا.. حين يتم إنشاء المخابرات العلمية المصرية.. لقد كان د. نبيل فاروق مقنعًا بالفعل!!

ثم تحوَّلت، في أثناء دراستي الثانوية، لقراءة العلوم الشرعية.. فبدأت في البحث عن كتب الدكتور عبد الوهاب المسيري، بالإضافة إلى د. مصطفى محمود بالطبع..

لا يمكن لأي أحد من هذا الجيل أن يهمل ما فعله هذا المفكر العبقري في

تفكيره ونظرته للحياة..

لم يسلم الأمر بالطبع من كتب أنيس منصور الغامضة التي كانت تجعلنا نرفع حواجبنا من الدهشة.. ونرتجف خوفًا حين نستوعب أننا –غالبًا– لسنا وحدنا في هذا الكون..

ثم كانت سنوات الدراسة الجامعية.. التي انشغلت فيها بدراسة الطب.. فأفقدتني الكثير من هواياتي الأثيرة.. التي لم يكن لي من ذكراها إلا العبقري د. أحمد خالد توفيق.. ومن لا يعترف بفضل هذا الرجل في إعادة جيل كامل إلى صفحات الكتب؟ فهو سانج بكل تأكيد..

كانت القراءة في البداية هواية.. ثم تحولت بالتدريج إلى هدف.. كان الأمر يتم تدريجيًا.. فكنت أتلقى المعلومة أو الرأي في البداية من الكتاب كحقيقة مسلَّم بها.. ومع تطوري العقلي.. بدأت أدرك أن الكثير من الكتب لا تحوي الصدق دائمًا.. وأن هناك الكثير من التدليس.. فبدأت أفكر وأنا أقرأ.. وأحلل ما أقرؤه باستمرار لأتبين مدى صدق أو كذب المؤلف أو الكاتب..

جعلتني هذه الطريقة متحررًا في قراءة كل شيء وأي شيء.. وساعدتني على التعرف إلى الأفكار المختلفة.. دون أن أكون مقتنعًا بها..

إنها القراءة.. السبيل الوحيد لبناء العقل.. والطريق إلى تخليق الفكرة..

المشكلة أنني حين بحثت في ذاكرتي كمن أسهم في تشكيل شخصيتي..

لم أجد غير مدرسي المراحل الثلاث الأولى في حيـاتي: الابتدائيـة والإعداديـة والثانوية.. بالإضافة إلى أصدقائي في تلك المراحل الثلاث.. فقد كان لهم – بعد والدي رحمه الله – الفضل الأكبر في هذه الرحلة التي أفخر بها..

شكرًا لكل من عاش معنا لحظات طفولتنا.. بكل ما حملت من ذكريات..

شكرًا لكل من علمنا حرفًا.. ولكل من أسهم في أن نصير كبارًا.. ولو أننا ما زلنا نتمنى أن نعود أطفالاً..



الفصل الأول

«كم هو ممتع أن تكتشف أن هناك شخصًا ما يتكوّن في داخلك.. المشكلة لست وحدك صاحب الحق في جعله شخصًا جيدًا.. أو شريرًا»..

الأستاذ «رمضان»

1

إنها السابعة صباحًا.. يندفع كعادته من بوابة تلك المدرسة الابتدائية.. يرتدي حلته الصيفية رمادية اللون.. لا يبدو أنه كان يملك سواها طيلة سنوات دراستي الابتدائية.. أعتقد أنه كان يمتلك أخرى كحلية اللون.. ولكن يبدو أنه كان يحتفظ بها للمناسبات السعيدة فقط. قامته الضئيلة كانت دومًا تلفت انتباه الجميع.. وشعره المجعد الذي كثيرًا ما كان ينسى تمشيطه.. وبشرته السمراء التي تلمع عليها حبيبات العرق حتى في فصل الشتاء.. ومشيته السريعة المتلهفة على شيء لا يعرفه أحد هي ما يميزه..

اسمه «رمضان».. لم يكن يعلم أن اسمه سيصبح علامة لكل مدرسي اللغة العربية من زملائه.. بعد أن يجسد شخصيته تقريبًا أحد ممثلي الكوميديا المشهورين..

ينهمك في وضع اللمسات الأخيرة لأخبار الصباح كعادته.. لم تكن أبدًا أخبارًا مهمة.. لكنه كان يهتم بانتقائها يوميًّا كأفضل معدي برامج التوك شو..

إنها تلك الورقة البيضاء الصغيرة.. التي كان يلقيها علينا أحد الطلبة

«المتفوقين غالبًا» في نهاية فترة الإذاعة المدرسية كل صباح.. والتي لم نكن نلتفت إلى ما بها من أخبار من الأساس.. إنها فقط إحدى الفقرات التي كنا ننتظر جميعًا أن تنتهي بمزيج من الملل والبرود.. لنصعد إلى الفصول الدراسية.

يكتب الورقة بيده اليمنى.. ويقبض بذراعه اليسرى على عصاه التي لا تفارقه أبدًا.. إلا في الدقائق القليلة التي يستقل فيها دراجته ليذهب إلى المدرسة من بيته القريب.. فيضعها على الشبكة المعلقة أمامه..

أحببت الأستاذ «رمضان».. على الرغم من أنني لا أذكر أنه ابتسم لي أو لغيري يومًا.. ولكنني لم أنسه أبدًا..

كلنا نعرف الأستاذ «رمضان».. كلنا نملك في ذاكرتنا «أستاذ رمضان» ما..

2

- والآن مع أخبار الصباح.

يهتف بها «رمضان».. ثم يشير إلى الطالب الذي يمسك الورقة بعصاه.. ويقف منصتًا للطالب الذي يقف أمام الميكروفون العتيق الذي يبعث الصوت مصحوبًا بصدى عالٍ.. مايسترو يقود فرقته الموسيقية.. يتابع تشكيل الكلمات التي تخرج من هذا الفم الصغير.. إنه يعتبر نصب الفاعل كارثة تستدعي الحكم بإعدام الطالب الذي يفعلها..

يلقي المذيع الصغير الأخبار المنتقاة من الصحف بلغة عربية مشكّلة أكثر من اللازم.. إنه يشعر بالفخر وهو يختلس النظر إلى زملائه وهم يستمعون إليه في طابور الصباح.. وفي الوقت نفسه يشعر بالخوف وهو يلتفت بطرف عينيه إلى وجه الأستاذ «رمضان».. ليرى اهتزاز رأسه بالرضا عن تشكيل الكلمات..

الكل يهاب الأستاذ «رمضان».. ولكننا أيضًا نحبه..

3

– هو الأستاذ «رمضان» عنده أولاد؟

– أستاذ «رمضان» مش متجوز أصلاً ! !

يجيبني زميل «التختة» العالم ببواطن الأمور دومًا.. لم أندهش لأنه غير متزوج.. فلم أكن أعتبر الأستاذ «رمضان» شخصًا طبيعيًّا يمارس حياته مثلنا..

مثل هذه الكائنات الأسطورية حتمًا لا تتزوج..

بعدها بسنوات كثيرة.. سأعرف بالصدفة أنه لم يتزوج لأنه كان محدود الموارد للغاية.. ويعول أمه المريضة من مرتبه القليل.. فلا يتبقى له منه ما يكفي للزواج..

إنها تلك الفترة من حياتك التي لا تعرف فيها عن أستاذك شيئًا.. إنه

كائن أسطوري.. مكانه الفصل الدراسي فقط.. فلا تستطيع تمييز رقة حاله ولا أصوله الريفية البسيطة..

الأستاذ «رمضان» لا يعطي دروسًا خصوصية.. وهذا يعني أنه لا يتزوج.. ولن يفعلها أبدًا..

4

أسير ببطء وأنا أقود سيارتي في هذا الشارع المزدحم.. أتأمل وجوه المارة من حولي.. فألمح من يسير مسرعًا.. وإن ضاقت خطوته عن أعوام مضت.. لكنها ما زالت مسرعة..

لا يحمل العصا.. وإنما يحتضن جريدة مطوية.. إنه هو.. حتى وإن اشتعل رأسه شيبًا.. ولكنني أعرف أنه هو..

أتوقف بحدة وأهبط من السيارة مسرعًا وسط نفير غاضب للسيارات من خلفي.. أهتف باسمه:

– أستاذ «رمضان».

يلتفت إليّ بحدة.. أهرول إليه.. أتناول يده المعروقة بين يدي لأسلم عليه.. إنها ترتعش.. وما زالت خالية.. لم يتزوج.. ولكنه يقبض على كفي بما يملكه من قوة لم يهزمها الزمن..

– حضرتك مش فاكرني؟ أنا كنت تلميذ حضرتك في ابتدائي..

تزداد قبضته على يدي.. إنه لم يتذكرني.. ولكنه سعيد أنني تذكرته.. يتمتم ببضع كلمات تعني التحية.. تزداد رعشة يديه..

أتأمل شقوق العمر التي حُفرت على وجهه الأسمر.. وأجاهد كي لا تسقط تلك الدمعة الغادرة من عيني.. فأسحب يدي سريعًا وأنا أستأذنه في الرحيل.. فيجيبني بابتسامة راضية ويمضي في طريقه.. لكنه هذه المرة يسير أسرع من كل مرة..

إنه يشعر بالزهو.. أعلم هذا جيدًا.. ولكنني أسعد منه بكثير.. لقد رأيته يبتسم.

5

أدلف إلى منزلي الصغير في هدوء.. زوجتي الشابة تعد الطعام في المطبخ الصغير.. أتأملها في هدوء.. ثم أرفع صوتي في مرح زائف:

- عارفة قابلت مين النهارده؟

تنظر إليَّ في تساؤل فضولي:

- مين؟

- الأستاذ «رمضان» بتاع ابتدائي.. فاكراه؟

كانت زوجتي من تلاميذ نفس المدرسة الابتدائية التي تخرجت فيها.. فتركت ما في يدها وهي تبتسم ابتسامة حميمية.. ثم تتنهد وهي تقول:

- يااااه.. هو لسَّة عايش؟

- تخيلي.. وسلمت عليه كمان..

تلاحظ زوجتي أنني لست سعيدًا.. فتسألني في اهتمام ضاحك:

- طب وايه اللي مضايقك في كده؟ هو زعقلك في الشارع زي زمان؟

أنظر إليها نظرة طويلة.. ثم تغلبني الدموع التي حاولت كتمانها طوال الطريق.. فلا تلبث أن تنهمر على وجهي وأنا أجيبها:

- بالعكس.. أنا مش ببكي علشان زعقلي.. أنا ببكي علشان احترمني!!

6

لم يحصل الأستاذ «رمضان» على المقابل المادي الذي يستحقه طوال سنوات عمله في التعليم.. ولم يحصل مَن هم مثله أيضًا.. على الرغم من أنهم أفنوا أعمارهم لنا..

سوف يموت «رمضان» وحيدًا لأنه لم يملك يومًا ما يتزوج به.. ربما لن يشعر بالسعادة طوال عمره إلا حين يرى تلامذته يسلمون عليه في الطريق..

لم يعرف «رمضان» السعادة إلا لحظات قليلة.. لكنني فخور أنني كنت السبب في بعضها..

بعد الفُسحة !

1

– دادة أم مبروك.. عاوز بسكوت بيمبو..

نظرت إلى يدي الصغيرة الممدودة إليها بورقة مالية من فئة العشرة قروش.. ثم نظرت إليَّ في حنان:

- من عينيا يا حبيبي.. خد اللي انت عاوزه.

إنه ذلك الزمن الجميل.. الذي كان مصروفي فيه لا يزيد على ورقة مالية زرقاء اللون.. مكتوب عليها أنها تعادل خمسة وعشرين قرشًا مصريًّا.. وكانت تكفي لشراء كل ما أحتاج تقريبًا.. بل إنني كنت أستطيع أن أدخر منها ما يوازي خمسة قروش يوميًّا!

أتأمل أنواع البسكويت المتراصة أمامها في تناثر.. حتى تقع عيناي على ذلك الغلاف الذهبي المميز لهذا النوع – الأشهر وقتها – فأتناوله في سرعة.. ثم ألقي بالورقة المالية أمامها.. وأنهمك في فتح الغلاف الذهبي المستدير لأبدأ في التهامه في نهم طفولي..

تناولت تلك النقود في هدوء.. وأشاحت بوجهها بعيدًا لتراقب ولدها الذي كان بجوارها في تلك الحجرة التي تفتح بابها الصغير على فناء

المدرسة.. لقد كان هنا الآن.. أين ذهب؟

- «مبروك».. انت فين؟

أجابها صوت أجش من ورائها:

- «مبروك» هنا.. «مبروك» هنا..

نظرت إلى ولدها الوحيد في حسرة.. لم يكن الأمر شاذًا بالنسبة لها.. فقد اعتادت على ملامحه الغريبة.. عيناه الضيقتين المسحوبتين من أطرافهما.. وأذنيه اللتين تنخفضان عن المستوى الطبيعي.. إنه لا يحمل من ملامحها أو ملامح أبيه سوى ذلك الشعر الأسود المتفحم الذي ينسدل بنعومة على وجهه.. إنه يشبه شعرها الناعم الأسود.. غير أن وجهه المستدير والانتفاخات التي تحيط بعينيه تعطيه ملامح غريبة..

لقد قالوا لها في المستشفى، منذ اليوم الأول لولادته: إنه «طفل مغولي».. لم تستوعب معنى الكلمة.. فتعليمها البسيط الذي لم يصل إلى مرحلة الشهادة الإعدادية لم يكن يحوي ما يفسر هذا الوصف.. حتى زوجها الحاصل على دبلوم زراعة لم تبدُ على ملامحه أنه فهم ما قالته الممرضات.. لكنها لاحظت تغير تعبيراته بعد أن خرج من الحجرة بصحبة الطبيب وعاد ثانية.. قبل أن يختفي من حياتها إلى الأبد بعد شهرين من ولادته.. ليتزوج بأخرى في مدينة بعيدة..

لقد قالت لها أمها إنه «مبروك».. فرحت بالوصف في البداية.. ولكنها اكتشفت أن الثمن الذي ستدفعه لتستضيف في بيتها طفلاً «مبروكًا» لنيس بالثمن الهين..

كان «مبروك» الطفل الأول لها.. بعد صبر دام لست سنوات كاملة.. كادت تيأس من أن تحمل في أحشائها قلبًا ينبض..

تساقطت بعض الدموع من عينيها حين تذكرت اليوم الذي أخبروها فيه، في تلك الوحدة الصحية القريبة، أنها حامل.. كم كانت تتوق إلى ولد يشد من أزرها أمام تقلبات الزمن..

– ألعب حلو بره..

نطقها بمزيج من البراءة والسذاجة.. تأملت وجهه ثانية ثم هتفت:

– لا يا «مبروك».. العيال بيضربوك بره يا حبيبى..

– العيال وحشة.. «مبروك» حلو.. ألعب حلو..

تأملت جسده الضخم.. إنه في العاشرة من عمره الآن.. لقد عاشت أعوامًا عصيبة بالفعل.. إنه يكبر أمامها كل يوم.. ولكن عقله ما زال يرفض النمو..

إنها ما زالت تتمزق كل يوم عندما تراه يجري من الصبية في فناء المدرسة الابتدائية التى تعمل بها، كعاملة نظافة، في الصباح.. وتقيم بها في الوقت نفسه؛ حيث تقوم بتنظيف سكن الطالبات التابع لنفس المؤسسة التي

تشرف على المدرسة في المساء..

لقد تركت منزلها الصغير الذي يقع في حي شعبي بعيد منذ أن تركها زوجها.. لقد كانت حسناء بالفعل.. فلم تستطع أن تمكث وحيدة، خاصة أنها لا تملك موردًا للرزق.. وكل من تقدَّم للزواج منها كان يشترط أن تترك «مبروك» لوالدتها.. وهي لا تستطيع أن تفارقه يومًا واحدًا..

لقد ازدادت أطماع الخبثاء فيها.. وبدأت المضايقات تزداد من شباب الحي العاطل.. فاضطرت لترك الحي بالكامل.. حين وجدت هذا العمل الذي يشترط المبيت فيه.. والذي يسمح ببقاء «مبروك» معها..

لقد أدركت أن كلمة «مبروك» التي بشَّرتها بها والدتها لا تعني سوى أنه سيظل طفلاً طوال عمره..

أشاحت برأسها بعيدًا وهي تتذكر كيف كانت تبحث عن علاج بين الأطباء والمستشفيات منذ أعوام كثيرة.. إنه وحيدها.. تذكرت كيف كان ينظر الأطباء إليها بحسرة عاجزة.. لم يحاول أحد منهم أن يعطيها بارقة أمل.. كلهم بمجرد رؤيتهم له يهتفون بالكلمة نفسها التي ما زالت تستنكرها! ما علاقة ولدها بالمغول؟ بل مَن هم المغول أصلاً؟!

لقد حاولت بكل جهدها.. حتى ذلك الطبيب الذي رأته في التلفاز ذهبت إليه، على الرغم من المبلغ الضخم الذي دفعته ثمنًا للكشف.. لقد اضطرت لبيع

الحلق الذي تمتلكه لتستطيع السفر إليه من مدينتها الصغيرة..

لقد دبَّ اليأس في قلبها منذ فترة طويلة.. سوف يظل «مبروكًا» ما بقي له من العمر.. المشكلة أن ما بقي لها هي لم يعد كثيرًا.. إنها تنفق عليه وعلى نفسها من العمل في تلك المدرسة براتب زهيد.. وتستكمل نفقاتها بتلك القطع الصغيرة من الحلوى التي تبيعها للأطفال في «الفسحة».

– قلت لك لأ يا «مبروك».. مفيش خروج.. بعد الفسحة ما تخلص ابقى اخرج العب براحتك..

صرخت في وجهه.. ربما للمرة الأولى منذ أن رأته عيناها.. إنها لم تعد تحتمل تلك السخرية التي يلاحقونه بها في فناء المدرسة.. بل لم تعد تحتمل المشكلات التي يقع فيها مع التلاميذ.. لقد جف حلقها من كلمات الاعتذار الخانعة التي ترددها كلما تشاجر مع أحد أو أخذ طعامًا من أحد التلاميذ..

لقد فاض بها الكيل.. كثيرًا ما كانت تتساءل عن نهاية هذا العذاب..

– بعد الفسحة لأ.. ألعب حلو دلوقت..

صرخ باكيًا أمامها.. تأملت ملامحه الغريبة ونظراته الغاضبة ثانية.. وأخذت تراقب خصلات شعره الناعم المتهدلة على جبهته..

– خليه يخرج يا دادة.. ما تخافيش، ما حدش هيضربه.. إحنا هنخليه يلعب معانا.

قلت لها ببراءة تليق بطفل في الصف الثالث الابتدائي.. فنظرت إليَّ بابتسامة باهتة.. ثم التفتت إليه:

- أمري لله.. اخرج يا «مبروك» بس ما تضربش حد..

2

ارتفع الغبار الناتج عن أقدام الصبية في فناء المدرسة.. لا أدري لماذا يصر المسئولون عن المدارس الابتدائية تحديدًا أن يغطوا فناء المدارس بالرمل الناعم.. الذي يكوِّن في كل «فسحة» سحابة ترابية عنيفة لا تهدأ إلا بعد أن يعود التلاميذ إلى فصولهم محملين بأطنان من الغبار والعرق..

إنها «الفسحة» بكل ما تحمله تلك الكلمة من بهجة في نفوس التلاميذ.. إنها الانطلاق جريًا بلا هدف محدد من الصبية.. فلا تستطيع أن تحدد مَن الذي يركض خلف الآخر.. ثم لا تلبث أن تقع عيناك على تلميذتين تسيران في هدوء بجانب السور.. غير عابئتين بكل هذا الضجيج الذي حولهما..

إنها الفوضى التي يحبها كل تلميذ على وجه الأرض.. تلك الفوضى التي يتبعها أصعب وقت يمر عليَّ في يومي الدراسي: الحصص الدراسية التي تأتي بعد الفسحة!!

أنطلق جريًا إلى أصدقاء الفصل الذين أشاركهم اللعب بعد أن ابتعت ذلك البسكويت المغطى بالشوكولاتة الذي أحبه من أم «مبروك» كعادتي كل يوم..

لم أكن أعتقد أنه مسموح أن يسير صبي في الفسحة في هدوء.. الركض هو اللغة الرسمية لكل شيء.. فالفسحة قصيرة.. ويجب أن نبدأ في اللعب حالاً..

لقد نسيت أن «مبروك» ما زال خلفي يركض.. إنه يحب أن يلعب معنا.. لكنه لا يستوعب هذه اللعبة التي تسمى «كهربا» في كل مرة.. فهو يركض دون أن يلمسه أحد منا لـ«يشد الكبس».. فينتهي الأمر إلى أن تفسد اللعبة.. ويصيح في وجهه «حازم» في غضب.. فيجري إلى أمه باكيًا..

كان «حازم» هو أضخمنا جسمًا.. وهو - بمعايير الطفولة البريئة - يمتلك من المقومات ما يجعله يتزعمنا في اللعب دائمًا.. فهو يقسم الفرق.. ويختار دومًا أولا.. بل ونحتكم إليه حين نختلف.. إنه مصدر القوة فيما بيننا.. وهذا يكفي لجعله يسيطر علينا ببساطة.. فلا أحد يستطيع مجابهته أو الاعتراض عليه..

تغيَّر وجه «حازم» حين رأى «مبروك» يركض خلفي:

- إيه اللي جاب الواد ده؟ أنا مش قلتله إنه مش هيلعب معانا تاني؟

- معلش يا «حازم»، خليه يلعب معانا.. ده كان بيعيط عند الدادة وأنا قلتلها سيبيه ييجي معايا..

كانت لهجتي تحمل توسلاً أكثر من التبرير.. كنت أرجو «حازم» أن يوافق على أن يلعب معنا؛ لأن رفضه كان سيحسم الأمر بالكامل.. فإن

أستطيع أن أفرض إرادتي عليه مطلقًا..

- ماشي، بس هيبقى في الفريق معاك انت.. أنا ماليش دعوة!

تهللت أساريري وأنا أجيبه:

- ماشي.

لقد فررت من معركة كنت أعلم أنني سأخسر فيها بالتأكيد.. حتى لو كان الثمن أن ينضم إلينا «مبروك» في فريقي.. وهو ما سيجعلني عرضة للخسارة في أغلب الظن.. ولكن منذ متى و«حازم» يخسر؟ إنه سيفوز في كل الأحوال.. فلا مانع إذًا أن ينضم إلينا «مبروك»..

- عارف اللعبة يا «مبروك»؟ ما تغلطش بقى..

- «مبروك» العب حلو.. بعد الفسحة لأ..

3

بدأ الركض من كلا الفريقين.. اللعبة قديمة قدم التاريخ.. حتى إنني لا أذكر متى تعلمتها.. إنها تعتمد على أن يحاول فريق الإمساك بفريق آخر.. فإذا قارب أحدهم من الإمساك بأحد أعضاء الفريق الذي يجري يمكن لهذا الشخص أن يقف ثابتًا وينطق سريعًا كلمة «كهربا».. ولا يستطيع أن يتحرك من مكانه ثانية إلا بعد أن يقوم بلمسه أحد أعضاء فريقه قائلاً: «شد الكبس».. فيبدأ في الركض ثانية.. لعبة خُلقت ليجري الأطفال.. لا أظن أنها

تحمل أي فائدة أخرى..

كلنا نعلم أن «مبروك» محدود الذكاء، لكننا ندرك أيضًا أنه سريع بالفعل.. إنه أسرع مَن رأيت في حياتي.. وهذه الميزة تعتبر كنزًا في لعبة تعتمد أساسًا على الركض..

لقد احتدم الصراع بين الفريقين.. يبدو أن الحظ يعاند «حازم» اليوم.. ففريقه قد اقترب من الهزيمة بشكل كبير.. ولا أحد يستطيع الإمساك بـ«مبروك» أبدًا.. فسرعته تفوق سرعتنا جميعًا..

لقد بدأ «حازم» في الصياح.. لو لم يتم الإمساك بـ«مبروك» سيخسر فريقه.. وهو لا يحتمل تلك الهزيمة.. إنه يراها عارًا شديدًا، خاصة من فريق يحوي هذا المعتوه الذي يمقته..

اقترب «حازم» من «مبروك».. إنه لا يستطيع الإمساك به.. لكنه يستطيع أن يضع قدمه بين قدميه اللتين تركضان بسرعة.. إنه يعلم أن هذا يمكن أن يتسبب في وقوعه.. ولكن لا يهم.. المهم ألا يخسر..

لم يتمالك «مبروك» نفسه.. فلم يلبث أن فقد توازنه وهو مندفع إلى الأمام.. فطار في الهواء.. ثم سقط على وجهه.. ليصطدم رأسه بذلك الحجر البارز من الأرض..

انبثق من رأسه ذلك السائل الأحمر المخيف.. لقد امتلأ وجهه بالدماء

في لحظات قليلة.. وقف «حازم»، في البداية، ليعلن عن انتصاره بابتسامة متشفية لم تلبث أن اختفت وحل محلها نظرة متوترة وهو يراقب تلك النافورة من الدماء التي تخرج من رأس «مبروك»..

إنها المرة الأولى التي نرى فيها جميعًا كل هذه الدماء.. لقد وقع «مبروك» على الأرض وهو يصرخ ويخرج كلامًا غير مفهوم.. ارتفعت الصرخات من أفواه البنات اللاتي شاهدن هذه الحادثة.. واندفع إلى المكان عدد من المدرسين ليروا ماذا حدث.. أحد التلاميذ أدرك أن المصاب هو «مبروك» فتطوَّع بالركض لإبلاغ والدته التي أتت تجري إلينا وهي تصرخ:

– إيه اللي حصل؟ استر يا رب.

– حصل خير يا أم «مبروك».. اهدي بس وهنتصرف.

أجابها ذلك المشرف الذي يحمل «مبروك» على يديه ويسرع في السير حتى يصل إلى باب المدرسة..

– ابني.. ابني يا بيه هيروح مني.. يا رب ليه كده بس؟ رد عليَّ يا «مبروك».

– يا ستي اهدي بس وربنا يستر إن شاء الله.

– يا رب هو أنا ناقصة؟ ده أنا في اللي مكفيني.. يا رب استر..

ثم التفتت إلى «مبروك» وكأنها تذكرت أمرًا مهمًا:

- ما أنا قلتلك بعد الفسخة يابن الكلب.. يعني لازم الفسحة؟!

نظر إليها «مبروك» من بين الدماء التي تغطي وجهه وهتف بضعف:

- بعد الفسحة لأ.. بعد الفسخة لأ.

عندما تعشق الشوكولاتة!!

1

- يا «محمد» مش قلتلك قبل كده تعالى اقعد هنا قدام؟

هتفت أبلة «أحلام» بها وهي تنظر إليَّ بغضب مصطنع..

أتأمل وجهها الغاضب في صمت متوسل.. لا أرغب في العودة إلى مقعدي في الصف الأمامي.. أريد أن أبقى هنا.. بجوارها!

رقيقة هي كالسحاب.. تتناثر خصلات شعرها الناعم الأسود على جبهتها البيضاء في تناغم محبب.. وترتسم على وجهها المستدير ضحكة مستديمة وبراءة طفولية عابثة.. تنبعث منها رائحة نظيفة محببة.. تشوبها بقايا عطر خفيف.. يبدو أنه لشيء يتعلق بتصفيف الشعر.. ولكنني كنت أعشقه!

لا أرغب في أن أجلس في مقعدي بجوار زملائي من الأولاد.. بل أرغب في أن أجلس بجوار «ندى» دائمًا..

لقد عانيت كثيرًا سخرية أصدقائي؛ لأنني كنت أترك مقعدي دائمًا لأجلس بجوار «ندى».. لكنني لا أهتم.. فأنا أشعر بالسعادة حين أكون بجوارها.. وهي أيضًا..

- عاوز أقعد هنا يا أبلة.

أستجمع شجاعتي لأواجه غضب الأبلة المصطنع.. لكنها تبتسم في خبث حازم:

- ما ينفعش يا بابا.. تعالى اقعد مكانك.

لم تكن المعركة متكافئة.. ولهذا فالنقاش قد تم حسمه.. أتقدم للأمام في حزن وانكسار.. ثم ألتفت للخلف لأراها تنظر إليَّ بحسرة.. ولكنها تبتسم مشجعة وهي تقول:

- هنلعب مع بعض في الفسحة.. وبعد الفسحة نقعد جنب بعض.

تنظر إلينا أبلة «أحلام» في اندهاش:

- شوف العيال؟! ده انتو لسَّة في أولى ابتدائي.. أمال في ثانوي هتعملوا إيه؟

أضحك في براءة وخجل:

- لما نكبر هنتجوز يا أبلة.

2

- ماما.. أنا بحب «ندى» وعاوز أتجوزها لما أكبر.

تنظر إليَّ أمي في اندهاش.. ثم تبتسم في حنان وهي تسألني:

- طب بتحبها ليه؟

أقف أمامها في حيرة.. أحاول أن أكون صارمًا وحاسمًا في إجابتي.. ولكن

السؤال صعب بالفعل..

أتردد قليلاً.. ثم أجيب في حسم:

- عشان حلوة.

تلتفت إلى أمى ثانية وهى منهمكة في إعداد طعام الغداء في مطبخ منزلنا:

- طب ما فيه بنات حلوين كتير.

لقد أصبحت الإجابة أصعب كثيرًا!! فلم يستوعب عقلى الصغير سببًا آخر.. لقد اتخذت القرار.. وهذا يكفى!

أنسحب قليلاً.. وأنشغل باللعب الهادئ في حجرتى.. ثم أكتشف إجابة جديدة.. فأنطلق إلى أمى ثانية:

– أنا عرفت أنا بحب «ندى» ليه.

تبتسم أمى وهى تسألنى:

– ليه؟

أنتظر لحظة.. ثم أجيب في حسم:

– عشان ريحتها حلوة!

يتميز الأطفال أن مشاعرهم حسية دائمًا.. لم يكن لديَّ القدرة أن أشرح لأمي لماذا أشعر بالراحة حين أتحدث إليها.. لقد حار الأدباء في تفسير

الشعور بالحب.. إلا أن الأطفال يكونون أكثر صراحة في تفسير مشاعرهم.. إنها تمتلك رائحة زكية.. وهو ما يكفى بالنسبة لى كى أحبها..

يرتفع حاجبا أمي في انبهار مصطنع:

– فعلاً!

تترك ما في يدها.. تقترب مني ثم ترفعني لأعلى بيديها لتطبع قبلة على خدي:

– انت لسَّة صغير يا حبيبى.. لما تكبر نبقى نتفاهم.

أبتسم في سعادة بعد أن أبهرتها إجابتى..

3

تسألنى «ندى» عمًّا إذا كنت أحب رقائق البطاطس التى تجلبها معها كل يوم.. لم أكن أحبها للدرجة التى أشتاق إليها بهذه الصورة.. ولكننى وبمنطق العاشق الولهان أجيبها أن كل ما تعطينى إياه بالتأكيد سيكون جميلاً!

تبتسم في رقة.. وتسألنى عمًّا أحضرته معى اليوم من طعام.. أخرج لها ما في حقيبتى.. فتنظر إلى قطعة من الشوكولاتة.. ثم تبادرنى بالجملة المعتادة:

– طب نبدل بقى.. انت تاخد البطاطس وأنا آخد الشوكولاتة..

أبتسم في جنان.. فقد اعتدت على هذه الصفقة اليومية.. حتى إننى كدت أنسى طعم نوعي المفضل من الحلوى..

- البطاطس أحلى من الشوكولاتة.. وكمان ماما بتقول إن الشوكولاتة بتبوّظ الأسنان.. بس أنا هسيبها علشانك وهاخد الشوكولاتة.

لا أرى أن رأيها صائب.. ولكنها بالتأكيد محقة..

4

- فين الشوكولاتة بتاعتك؟

لم يكن معي في ذلك اليوم ذلك النوع الفاخر من الشوكولاتة.. فقد سافر أبي الذي كان يحضرها لي كل مساء لأستيقظ فأجدها بجوار حقيبتي.. سوف يغيب أبي شهرًا كاملاً.. لقد قبّلني بالأمس قبل أن يستقل القطار.. سوف أفتقد أبي بالتأكيد.. لكنني لن أفتقد الشوكولاتة.. فقد نسيت طعمها تقريبًا..

- مش معايا النهارده علشان بابا سافر.. معايا ساندويتش جبنة.

أبتسم وأنا أمد يدي إليها به في حنان.. وأهم لألتقط الكيس البلاستيكي الذي تحمل فيه البطاطس كالعادة..

- لا، أنا هاكل البطاطس النهارده.. وانت كل الساندويتش بتاعك.

أتعجب وأنا أنظر إلى ملامحها التي تشي بالغضب من شيء لا أعرفه..

- ماشي.. فسّحي بقى عشان أقعد جنبك..

- لا، المكان ضيق.. روح اقعد مكانك عشان الأبلة ما تزعقش.

كان الرد غريبًا.. ولكنني أعتقد أنها لا ترغب في أن تغضب مني «الأبلة»..

إنها تحبني بالتأكيد!!

5

أسبوع كامل لا تريد «ندى» أن تلعب معي في الفسحة!! لا أعرف السبب.. ولكنها تفضل أن تلعب مع صديقتها السمجة التي تجلس خلفها.. لا أعرف السبب ولكن ينبغي أن أسألها..

أهتف باسمها في حماس وأنا أركض في اتجاهها:

- «ندى».. انتي مش بتلعبي معايا ليه؟

- أنا مش بحب ألعب مع أولاد.. يلا روح العب مع أصحابك!

كانت الصدمة كبيرة.. وماذا عمّا بيننا؟ أنظر إليها في غضب وأنا أقول:

- كده؟ طب أنا زعلان منك ومش بحبك.

- ولا أنا بحبك!!

كيف استطاعت أن تنهي كل شيء بهذه البساطة؟! أنصرف من أمامها سريعًا وأنا أتمالك دموعي حتى لا تنساب أمام الناس.

أصل إلى منزلي حزينًا.. تنظر إليَّ أمي في تساؤل فأجيبها:

- أنا مش بحب «ندى».

تبتسم أمي وهي تربت على وجهي:

- ليه؟ اتخانقتوا؟

أقص عليها ما حدث بيننا فتبدأ ملامحها في التغير.. حتى انتهيت من سرد كل ما حدث فتسألني باهتمام:

- يعني انت ما كنتش بتاكل الشوكولاتة كل يوم؟

أتعجب من السؤال الذي يهتم بتفاصيل فرعية تافهة.. فأجيبها بغضب:

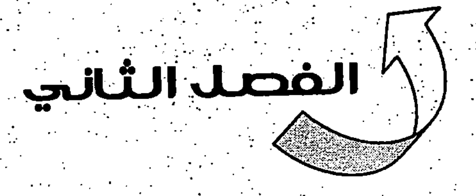
- لأ.. كنت بديها لـ«ندى»!!

تنظر إليّ أمي في غضب ممتزج بالدهشة.. ثم تقرر أن تنصرف من أمامي وهي تتمتم:

- ربنا ما يحرمك من الهبل يابني!!

لم أفهم ما قالته أمي.. ولكنني أعرف أنها حزينة أنني لم أعد أحب «ندى»!





الفصل الثاني

«أعتقد أن الوقت قد حان الآن لتتعرف أكثر على هذا العالم المليء بالأشرار.. والطيبين أيضًا!»..

سر «عجايبي»

1

لم تكن المرة الأولى التي أراه فيها.. فقد كان يجلس في المقعد الأمامي بجوار الباب منذ بداية العام الدراسي.. لكنها المرة الأولى التي أتساءل فيها عن عزلته التي كانت مثيرة للتعجب..

لقد كان أبيض البشرة.. يميل قليلاً إلى السمنة.. ناعم الشعر أسوده.. لم تكن صفاته الشكلية تمنعه من أن يختلط بزملاء الفصل.. فقد كان بمقاييس الطفولة طفلاً جميلاً.. ولكن يبدو أن اسمه الغريب على أذني قليلاً هو السبب الأساسي.

لقد كان يُدعى «عجايبي»!!

إنه العام الأول لي في مدرستي الإعدادية الحكومية.. التي التحقت بها في تسلسل حتمي بعد انتهاء المرحلة الابتدائية.. فلم يكن في مدينتي الصغيرة مدارس إعدادية خاصة.. فكانت المرة الأولى التي ألتقي فيها شرائح مختلفة من التلاميذ على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية..

إنه ذلك الزمن الجميل.. الذي لم يكن فيه فروق اجتماعية عنيفة بين الطبقات.. فقد كانت الفروق المادية أقل من أن تلاحظها عيني الصغيرة.. فقط

كانت الأسماء الغريبة مثل «سيد»، ذلك التلميذ المشاغب الذي يجلس في المؤخرة.. و«زينهم».. ذلك التلميذ الذي رسب في العام الماضي في الشهادة الإعدادية.. والذي سمعت أنه قد تم فصله قبل ذلك حين اعتدى على أحد المدرسين! ! لكن والده قد أعاده إلى المدرسة بعد أن اعتذر للناظر.. وهذا الـ«عجايبي» الذي يجلس بجوار الباب..

لطالما تساءلت عن معنى الاسم.. ولكنني لم أتلقَّ ردًّا من أحد..

كان اليوم الأول من العام الدراسي.. حين اصطدمت به عن طريق الخطأ في أثناء دخولي الفصل.. فسألته في ود:

- أنا «محمد».. انت اسمك إيه؟

- عجايبي لطفي.

- عجايبك ازاي؟

لم أتلقَّ ردًّا.. فقد نظر إليَّ في برود ثم تركني واتجه إلى المقعد الذي اختاره لنفسه..

لم أتبادل معه حوارًا آخر.. ولكن ظل الاسم يثير انتباهي..

- أصله كوفتس!

لم أعرف معنى تلك الكلمة التي همس بها في أذني زميل التختة..

- يعني إيه كوفتس؟

- أربعة ريشة يعني يا عم.. انت إيه؟ مش من هنا؟

إنه يحاول أن يزيد الأمر تعقيدًا.. فلم أكن أعرف أن الإنسان يمتلك ريشًا من الأساس.. فازدادت ملامح وجهي حيرة.. ولكنه بادرني وقد أدرك جهلي سريعًا:

- مسيحي يعني.. عشان كده ما حدش بيلعب معاه.. وهو كمان ملموم في نفسه حبتين..

لم تكن إجابة زميل التختة عن أسئلتي مقنعة.. فالفصل به أكثر من طالب مسيحي الديانة.. ولا يعاني أحدهم هذه العزلة الملحوظة.. كما أنه لم يجبني عن السؤال الأهم:

- يعني إيه «عجايبي»؟

2

ربما كان من حسن حظي أن ألتحق في طفولتي بمدرسة خاصة تابعة لجمعية الشبان المسلمين في مدينتي الصغيرة.. ربما لأنها كانت أفضل كثيرًا في المستوى التعليمي من نظيراتها الحكومية.. ولكن يبدو أن الحظ الحسن لا يدوم.. فقد كانت مدرسة إسلامية.. فلا يستطيع المسيحيون الالتحاق بها.. فلم أعرف مسيحيًا واحدًا حتى وصلت إلى المرحلة الإعدادية.. حتى صديقا طفولتي «أشرف» و«عادل».. ابنا أعز صديق لوالدي.. لم أكن أعرف أنهما

مسيحيان إلا حينما لاحظت أنهما لا يذهبان مع والدهم لصلاة الجمعة مثلي!

لقد كان الصف الأول الإعدادي عامًا فارقًا في تشكيل عقلي.. فقد اكتشفت في هذا العام اكتشافًا مثيرًا.. أن هناك من يدينون بغير الإسلام.. ويمكنني أن أصادق البعض منهم.. بل إن منهم كثيرين ممن احتفظت بصداقتهم بعدها وحتى كتابة هذه السطور..

لم يكن لديَّ تلك «الفوبيا» التي ترتبط في المعتاد بالتعامل مع الآخر.. بل لم أكن ألاحظ ديانة هذا أو ذاك.. ربما فقط في تلك اللحظة التي يدخل فيها مدرس التربية الدينية إلى الفصل.. ويطلب من أصدقائي المسيحيين أن ينتقلوا إلى الفصل المجاور مع مدرس التربية المسيحية الذي يقف في انتظارهم..

لقد انتظرت طويلاً حتى أتت اللحظة التي كنت أرتقبها.. فقد احتاج «عجايبي» قلمًا ليكتب به لأنه قد نسي أقلامه بالكامل في المنزل.. فقفزت لأعطيه قلمًا إضافيًا أحمله في حقيبتي.. وأنا أنظر إليه بكل ما أمتلكه من ود.. فأخذ القلم وهو ينظر إليَّ في برود.. ثم صمت قليلاً قبل أن ينطقها في خفوت:

- شكرًا!!

لم أدرِ لِمَ كل هذه العزلة.. لا بد أن في الأمر سرًا ما..

لم يكن «عجايبي» متفوقًا في دراسته.. ولكنه لم يكن «بليدًا» للغاية.. فقد كان يحافظ على المستوى المتوسط للطالب طوال الوقت.. كما كان يحاول بقدر الإمكان أن يتجنب الأسئلة التي يلقيها المدرس في أثناء الحصص المختلفة..

حتى إن كان يعرف إجابتها..

كان الغموض هو ما يثير فضولي.. حتى أصدقائي المسيحيون في الفصل نفسه لم يكونوا على علاقة جيدة معه.. لا أحد يعرف أين يسكن.. كما لم يعرف أحد منهم حتى إلى أي كنيسة يذهب..

سوف أعرف السر.. لن يفلت مني بالتأكيد..

3

انتظرت طويلاً حتى رأيته في الفسحة يسير في هدوء وحيدًا بجوار السور.. اقتربت منه وأنا أسأله:

- «عجايبي».. انت لسَّة زعلان مني عشان اتريقت على اسمك؟

نظر إليَّ في برود.. ثم أجابني في هدوء:

- لا، مفيش حاجة..

- تبقى لسَّة زعلان.. والله يابني أنا بس ما كنتش أعرف الاسم ده قبل كده.. ما تزعلش مني.

رفع رأسه إلي.. تأمل ملامح وجهي التي تشي بود حقيقي.. ثم أجابني:

- خلاص مش زعلان بجد.. صدقني..

كم شعرت بالراحة الشديدة في هذا اليوم.. كما أنني لمحت شبح

ابتسامة على وجهه..

كدت أنجح في إذابة جبل الجليد..

ابتسمت وأنا أسير إلى جواره لأسأله:

- انت ساكن فين بقى؟

- قبلي.. مش هعرف أوصفلك.

- طب والدك بيشتغل إيه؟

ظهرت على وجهه لحظة وجوم.. ثم أجابني في سرعة:

- موظف.

- موظف فين يعني؟

نظر إليّ وكأنه يريد أن ينهي ذلك الحوار الذي جعله يفشي الكثير من الأسرار:

- موظف في التربية والتعليم.

ثم استدار وهو يبتعد:

- سلام بقى علشان الجرس هيضرب وعاوز أروح الحمام.

وابتعد سريعًا قبل أن أحاول استكمال الاستجواب الذي كنت أود استكماله.

4

- لو ما حدش قال مين اللي أخد الشنطة الفصل كله هيترفد وما

حدش هيرجع إلا لما يجيب ولي أمره..

نطقها الأستاذ «عبد الرحيم» بغضب شديد وهو يقف في منتصف الفصل الذي ساده وجوم شديد.. لقد فقد حقيبته التي اعتاد أن يحملها دومًا.. وجُن جنونه من وقتها.. إنه يستجوب الفصل بالكامل منذ ساعة تقريبًا.. والكل يعرف أنه لن يتوانى عن فصلنا بالكامل فعليًا إذا لم يعثر على حقيبته..

كنت أعرف أن «سيد» هو من أخذها ليغيظ الأستاذ «عبد الرحيم».. فقد عاقبه أكثر من مرة.. وقام بضربه على يده بقوة في اليوم السابق.. ولكنني لا أستطيع أن أنطق.. فلن أشي بزميل حتى لو أخطأ.. فالفتنة أشد من القتل!!

- يعني ما حدش هيتكلم؟ طب اطلع انت وهو بقى في الحوش بره وأنا هجيب الناظر يتصرف معاكم.

خرج الفصل بأكمله إلى ساحة الطابور.. الوجوم يعلو وجوه الجميع.. إنه اتهام بالسرقة.. لن يتوانى الناظر عن فصلنا في الأغلب.

نقف صفًا واحدًا أمام الناظر الذي ينظر إلينا بغضب صارم:

- لآخر مرة لو ما حدش اتكلم الفصل كله هيترفد.

ساد الصمت المعتاد.. حتى نظر إلينا الناظر متفحصًا وجوهنا.. ثم استقرت عيناه على «عجايبي» وهو يقول:

- أهلا.. هو انت في الفصل ده؟ طب ما كده بقت واضحة.. اطلع

بالشنطة يا ولد..

ثم استدار إلى الأستاذ «عبد الرحيم» وقال بلهجة المنتصر:

- أنا عرفت مين اللى أخد الشنطة يا أستاذ.. الولد ده طبعا.. هيطلع لمين يعنى؟

نظرت إلى «عجايبي» فوجدت ملامح وجهه قد امتلأت بالذعر.. وهتف في عصبية:

– ما خدتش حاجة يا أستاذ.. صدقنى ما خدتهاش.

– كداب.. انت أكيد اللى أخدتها.. هو أنا هتوه عنك؟ وبعدين هو انت هتجيبه من بره؟ مانت لازم هتطلع حرامى زي أبوك!!

كان وقع الكلمات علينا جميعًا كالصاعقة.. إذًا فهذا هو سبب الغموض الذي يحيط بهذا الطالب.. لقد فكرت في كل الاحتمالات.. ولكننى لم أتوقع أبدًا هذه المفاجأة.

- أنا مش حرامي يا أستاذ.. صدقنى ما خدتش حاجة.

- اخرس.. أنا هرفدك نهائى.. طلع الشنطة..

ثم التفت إلينا وهو يصيح:

- الكل يرجع فصله.. وسيبولى الولد ده..

كانت قسوة الناظر وتوسلات «عجايبي»، الذي أعرف جيدًا أنه مظلوم،

أكثر من احتمالي.. فوجدت نفسي أهتف في عصبية:

- يا أستاذ.. «عجايبي» ما أخدش حاجة.. أنا عارف مين اللي أخدها.

نظر إليَّ الناظر في غضب وقد ساءه أن أقوِّض استنتاجه الفذ.. فهتف في عصبية:

- عارف وساكت ليه؟ مين؟ انطق.

- «سيد» هو اللي أخدها.

أجبته وأنا أشير إلى «سيد».. ذلك الطالب المشاغب الذي يجلس في مؤخرة الفصل دومًا.. والذي نظر إليَّ نظرة متوعدة.. ولكنها لم تستمر طويلاً.. فقد التفت إليه الأستاذ «عبد الرحيم» وهو يقول:

- أنا كنت شاكك فيه من الأول.. اطلعلي بره يا وله.

وجدت الناظر يقاطعه في عصبية:

- خلاص.. انتهينا.. الكل يرجع الفصل.. وانت يا «سيد» ورايا على المكتب.

نظرت إلى «سيد» فوجدته ينظر إليَّ في غلٍّ واضح.. لا يبدو أن الأيام المقبلة ستكون جيدة بالنسبة لي في المدرسة.. هممت لأستدير عائدًا إلى الفصل فوجدت «عجايبي» ينظر إليَّ في ود شديد وهو يقول:

- أنا متشكر.. أوي.

- على إيه؟ مانت كنت مظلوم فعلاً.

نطقتها في برود وأنا أهمُّ بالابتعاد عنه.. فعلى الرغم من أنني قد أنقذته.. فإنني لم أستطع أن أستوعب أن يكون والده لصًّا..

يبدو أنه قد لاحظ تغير ملامح وجهي.. لكنه استدرك قبل أن أنصرف من أمامه:

- وعلى فكرة.. أبويا مش حرامي.. صدقني.

نظرت إليه.. ثم اعترتني الحيرة.. يبدو صادقًا.. ويبدو أن القصة لم تنتهِ بعد.

5

- أبويا صراف بسيط في مديرية التربية والتعليم.. عملوا جرد لقوا عنده عجز في العهدة بتاعته.. فاتهموه إنه أخدها وقبضوا عليه السنة اللي فاتت.. واتسجن.

نظر إليّ «عجايبي» وهو يقصُّ علي سره الذي حاول أن يخفيه.. ثم اتجه بعينيه بعيدًا وهو يستدرك:

- ومن ساعتها والمدرسين كلهم عارفين الحكاية.. وأنا بحاول أبعد عن كل الناس.. أنا متأكد إن أبويا بريء..

- طب وما حاولش يثبت براءته ليه؟

- الموضوع كان عاوز محامي كبير.. وما كانش معانا فلوس ليه..

ثم نظر إليَّ وابتسم:

- عرفت بقي ليه أنا متأكد إنه بريء؟ علشان لو كان أخد الفلوس كنا عرفنا نجيبله محامي كبير!

لم أستطع أن أجيبه بشيء.. فقد كان كلامه منطقيًا..

ابتسمت بدوري.. ثم اقتربت منه وأنا أربت على كتفه:

- إحنا من النهارده أصحاب.. ماشي؟ أنا مصدقك.

تهللت أساريره وهو يقول:

- ماشي..

- ممكن بقي أسألك سؤال علشان بقينا أصحاب؟

- اتفضل.

- مش ناوي تقوللي بقي يعني إيه «عجايبي»؟

انفجرنا في الضحك معًا.. ثم ذهبنا إلى فصلنا بعد انتهاء الفسحة معًا..

لقد عرفت أخيرًا سر «عجايبي» الصغير.. لقد صرنا صديقين بالفعل.. بل استمرت صداقتنا حتى الآن.. لقد صار مهندسًا ناجحًا.. وصرت طبيبًا.. بل إنني شهدت إكليل زواجه منذ عدة أعوام.. وما زلت أهاتفه في كل عيد له.. فيرد عليَّ ابنه الصغير.. الذي أصر أن يسميه على اسم والده: «لطفي».

اللورد.. وحذاؤه الذي لا يتسخ أبدًا

1

- ده أصله كان عايش بره.

يهمس بها صديقي في أذني بلهجة خطيرة وهو يشير إليه في طابور الصباح في المدرسة الإعدادية..

- ومش بيدي إلا سنة تالتة بس.. وفصل المتفوقين كمان.

يكمل صديقي معلوماته الثمينة.. وأنا أتجول ببصري حتى تقع عيناي عليه..

أتأمله بدقة.. فرؤيته فرصة لا تسنح للكثيرين..

قامته النحيلة وبشرته البيضاء التي تتناسق مع شعره الأبيض الخفيف قد لا يدلان على شيء.. لكنني ألتفت إلى حلته الصيفية المكوية بعناية شديدة.. ونظارته الذهبية التي تبدو فاخرة بالفعل.. وحذائه الأبيض الذي يبدو أنه اشتراه للتو.. ووقفته العسكرية التي تشبه وقفة الحرس الملكي البريطاني.. يبدو عليه أنه كان «عايش بره» بالفعل..

أخيرًا رأيت مستر محمد توفيق، مدرس اللغة الإنجليزية..

2

لكنته الإنجليزية ممتعة بالفعل.. إنه يتحدث لغة غير التي كانوا يدرسونها لنا في الأعوام الماضية.. بل إنني أكاد لا أفهم كثيرًا مما يقول، على الرغم من أنه يقرأ الدرس المكتوب في الكتاب المدرسي الذي أفتحه أمامي الآن..

يقول مستر «محمد»: «ينبغي أن تتذوق اللغة».. لم أفهمها وقتها.. لكنني أيقنت أنها نصيحة غالية.. إنها من النصائح التي قد تحتفظ بها في ذاكرتك لتورثها لأبنائك فيما بعد..

يبدو أنه يثق في ما يقول..

3

- أستاذ محمد توفيق بيديك في الفصل؟ ده راجل كويس أوي.. وبنته كانت صاحبة خالتك.

تتميز المدارس في الأقاليم الصغيرة، مثل محافظتي الصعيدية، بأن شخصية المعلم الأسطوري الذي لا يراه أحد إلا داخل الفصل تنهار سريعًا.. فلن تلبث أن تراه يسير في الشارع.. أو يبتاع احتياجات البقالة الخاصة بمنزله من البقال الذي يقع تحت منزلك..

ستجد دائمًا من يعرفه من أقاربك.. وهي الميزة التي ربما تعوّض العيب

الذي يحدث.. عندما يهبط المدرس من برجه العاجي.. ليكتشف تلاميذه أنه بشر مثلنا.. بل ربما تجده يسلم على أبيك إذا رآه في الشارع.. بل ويربت على كتفك.. فتظل فخورًا حتى تراه في اليوم التالي في المدرسة.. لتحكي لأقرانك كيف أنه يعرفك جيدًا..

كان مستر محمد توفيق يسكن بجوارنا؛ لذا فقد انطبقت عليه هذه النظرية حرفيًّا..

لم يعد ذلك الأنيق النحيل ذو الشعر الأبيض وجهًا غريبًا عليَّ.. فكنت أراه كثيرًا يمشي بتلك الطريقة العسكرية الصارمة.. وهو يحمل على وجهه ابتسامة لا يتركها أبدًا..

4

- تقبل الله يا مستر.

أمد يدي إليه عقب صلاة الجمعة.. أعرف أنه يصلي في هذا المسجد تحديدًا.. فوجدت أنها فرصة جيدة لأسلم عليه..

- أنا «محمد».. كنت تلميذ حضرتك.. بس دلوقت في أولى طب.

يمد يده ويسلم عليَّ سلامًا عسكريًّا لا يختلف عن مشيته الأثيرة وهو يبتسم كعادته:

- ما شاء الله.. مبروك يا دكتور.

لم تتغير ابتسامته البسيطة الهادئة.. لكنني أستطيع أن ألمح لمعة في عينيه من تحت تلك العوينات الذهبية التي يرتديها.. إنه يشعر بالفخر.. لقد أدركت هذا..

أشعر بالفخر الشديد.. أعرف أنني لم أصبح طبيبًا بعد.. ولكن يكفي أن يفخر بك أساتذتك القدامى..

5

– عارف مين هيدخل لنا النهارده في السكشن؟ الدكتورة «هبة»..

– الدكتورة «شبة» مين؟

– مش عارف مين الدكتورة «هبة»؟ دي تبقى بنت الأستاذ محمد توفيق، بتاع الإنجليزي..

ثم التفت إليّ صديقي باهتمام:

فاكره؟!

التفتُّ إلى صديقي بحدة ولكني لم أتمكن من الرد عليه.. فقد دخلت الدكتورة «هبة» إلى السكشن بالفعل..

أتأملها بدقة.. تشبه أباها كثيرًا بالفعل.. ولكنها لا تحمل تلك اللمسة العسكرية في مشيتها ولا في كلامها..

يقولون أن الطيبة ليست صفة موروثة.. ولكن الدكتورة «هبة» يبدو أنها

أحرجت «مندل» بالفعل!

لقد كانت تعمل مدرسًا مساعدًا بقسم «علم وظائف الأعضاء» في كلية الطب.. والمعروف لدى الكثيرين بقسم «الفسيولوجي».

إنها مادة سمجة.. ولكن يكفي أن تسمعها من الدكتورة «هبة».. لتتحول إلى مادة لطيفة مستأنسة..

تقول الدكتورة «هبة»: ينبغي أن تتذوق الطب لتفهمه!!

أين سمعت هذه الجملة من قبل؟

ثم أبتسم ابتسامة خفيفة وأهز رأسي موافقًا..

أجل.. ينبغي أن أتذوق اللغة.. والطب معًا..

6

ألمح مشيته العسكرية العتيدة.. فأعرفه من دون أن أرى وجهه.. أسارع في مشيتي لأقترب منه.. يبدو أنه يتريَّض فقط.. فهو لا يسير بالسرعة التي اعتادها.. أو إنه الزمن الذي استطاع أن ينال من ركبتيه النحيلتين..

ما زال نحيلاً.. أبيض الشعر وإن ازدانت رقبته بكسور جلدية كثيرة.. لم يشخ وجهه ولكن شاخت رقبته..

أسلِّم عليه بحرارة.. فيشد على يدي بقوة يحاول أن يجعلها تبدو واضحة.. إنه يصر على أن يبدو كما كان دومًا.. وينجح في هذا في معظم

الأحيان..

ما زال الأستاذ محمد توفيق محتفظًا بابتسامته.. ما زال محتفظًا بهيبته.. ولكن الأكثر أنه ما زال محتفظًا بحذائه الأبيض.. الذي تشعر أنه قد اشتراه لتوِّه.

عندما تشجع الحكم!

1

- مدرسة صفا.. انتباه.

لم يفسر لي أحد طوال فترة دراستي في ثلاث مراحل دراسية مختلفة ما الفائدة من أن يهتف أحدهم أن يبعد التلاميذ سيقانهم ليكونوا «صفا» أو يضموها ليكونوا «انتباه».. ولكنها كانت الشغل الشاغل له..

يصطف الطابور بانتظام محبب.. ثلاث كتل من التلاميذ الذين يرتدون زيًا موحدًا يصطفون في شكل منتظم.. الصمت هو المسيطر على كل شيء.. حتى إنني أعتقد أن العصافير التي كانت تسكن تلك الشجيرات المحيطة تصمت هي الأخرى.. حين يمسك بالميكروفون..

تبدأ الخطوط الطولية تظهر بين عينيه معلنة عن «تكشيرة» اعتدناها يوميًّا.. واعتادها هو أيضًا.. يقف مرتديًا زيَّه الرياضي كحلي اللون.. وحذاءه الكاوتشوك الأبيض ذا الخطوط الثلاثة على جانبيه.. الذي كان يفخر به دومًا.. تلمع بشرته السمراء في أشعة الشمس الوليدة.. ينظر إلينا في غضب مكتوم.. لم أعرف له سببًا أبدًا.. يدير وجهه بين وجوهنا الصغيرة.. الويل لمن سوف يلمحه منا يلتفت إلى جانبه.. يطمئن إلى أن الجميع قد أدرك أنه

يقف على منصة الإذاعة.. ثم ينسحب للخلف تاركًا ذلك الميكروفون القديم لمدرس اللغة العربية.. المسئول عن الإذاعة المدرسية في تلك المدرسة الإعدادية العريقة..

أتأمله وأنا أحاول الحفاظ على هذا الصمت الرهيب.. أعرف أنه يفتخر دومًا أن العمل في هذه المدرسة لا يعني له شيئًا.. فهو يعمل حكمًا لكرة القدم..

بعدها بأعوام أدركنا أنه كان يكذب.. فمهنته كحكم للكرة لم تكن تدر عليه دخلاً يُذكر..

أحاول أن أحفظ ملامحه جيدًا.. فأنت لا ترى وجهًا يظهر على شاشات التلفاز كل يوم!

إنـه الأسـتاذ «صـلاح».. حكـم الدرجـة الأولى ومـدرس أول التربيـة الرياضية.. أو بتعبير آخر: «بتاع الألعاب».

2

لم تكن ذكرى تعارفي الأول به محببة إلى نفسي.. فقد كانت نتيجتها ألمًا شديدًا في كفي اليمنى بعد أن سقطت عليها عصاه بعنف.. بعد أن أخرجني من الطابور أحد أعضاء الشرطة المدرسية؛ لأنـني همسـت في أذن زميلي الواقف أمامي بما لا أذكره..

كنت وما زلت أكره الشرطة.. كل الشرطة..

3

أدلف إلى تلك الحجرة الصغيرة الملحقة بحوش المدرسة الترابي.. ظلام الحجرة لم يمنعني أن أتأملها جيدًا.. الكثير من كرات القدم المفرغة من الهواء ملقاة بإهمال في الركن الأيمن.. وبقايا بعض الأزياء الرياضية رخيصة الثمن مبعثرة في أرجاء الحجرة.. الكرسي الخشبي الوحيد بها يجلس عليه هو..

أنظر إليه في توجس وأنا أبتسم:

- حضرتك كنت عاوز ناس من سنة أولى في الشرطة؟

ينفث دخان سيجارته الرخيصة في الهواء قبل أن ينظر إليّ:

- آه، مش انت بتاع أولى أول؟ ماشي، اكتب اسمك هنا.. هتمسك سنة أولى في الطابور.

لم أكن أحب الطلبة الذين يعلقون تلك الشارة الحمراء على كتفهم اليمنى.. كما لم أحب الأستاذ «صلاح» قط.. ولكنه نوع من التدليس والنفاق اللذين نتعلمهما منذ نعومة أظفارنا.. إنها قوة كنت أبحث عنها دومًا.. فبنيتي الضئيلة ونظارتي الطبية كانتا تقفان حائلاً أمامي دومًا لأن أمتلك أيًّا من مظاهر القوة أو السيطرة.. حتى تفوقي الدراسي الدائم لم يكن ليشفع لي حين يقرر أحد الطلبة ضخام الجسم أنني لا أروق له وأنه قرر أن يفرغ عليّ

سيطرته.

إنه داء يصيبنا منذ الصغر.. بعضنا يُشفى بعد أن يكبر ليصبح إنسانًا سويًا.. والبعض الآخر يظل مريضًا.. فيصبح ضابط شرطة!

سوف أصبح عضوًا في الشرطة المدرسية.. لن يستطيع أحد أن يضربني ثانية.. سيهابونني بكل تأكيد.

4

تنطلق الصافرة التي تعني أن يتوقف هؤلاء البشر عن الركض.. وتتوقف تلك الكرة عن التقافز بين أقدامهم لسبب لا أعرفه.. والواقع أنني قد استغرقت وقتًا طويلاً من طفولتي لأتفهم معنى أن يطلق هذا الشخص الذي يرتدي زيًا أسودَ – والذي لا ينتمي لأي فريق من الفريقين الذين يتنافسون على تلك الأرضية الخضراء – صافرة طويلة.. فيتوقف الجميع عن اللعب بداعي ما يطلقون عليه «تسلل»!

كيف يتسلل أحدهم وسط كل هذا الزحام؟! بل وكيف يلتقطه ذلك الشخص دون غيره.. إنها موهبة بكل تأكيد!

كنت أعرف أن الذي يرتدي هذا الزي الأسود شخص مألوف هذه المرة.. إنه كابتن «صلاح».. لقد همس لي الطلبة في الفصل اليوم بأنه هو من سيقوم بالتحكيم في مباراة الأهلي مع ذلك الفريق السكندري اليوم.. ولهذا فقد تغيَّب

عن المدرسة منذ الأمس..

أشعر بالإثارة تملأ جسدي.. أحاول أن أنتهز اللحظات التي توجه الكاميرا التلفزيونية عليه لأتأمل ملامحه.. ثم أهتف على والدتي في كل مرة:

- الأستاذ «صلاح» أهو يا ماما..

فتنظر إليَّ باسمة:

- والله؟ طيب كويس.

الأمر لا يعني أحدًا غيري.. ولكنني كنت أرغب في أن أفتخر به أمام الجميع.. أنا أعرف هذا الرجل الذي يظهر الآن على تلك الشاشة الفضية الصغيرة.. بل وأتحدث إليه أحيانًا.

يثبِّت هذا اللاعب الذي يرتدي زيًّا أحمرَ وسروالاً قصيرًا أبيض اللون الكرة تحت قدميه.. ثم يرجع عدة خطوات للخلف.. وينطلق بعدها ليركل الكرة بقوة شديدة.. فترتفع عاليًا حتى تصل إلى ذلك الصندوق المغطى بالشباك.. فتمر من فوقه بسنتيمترات قليلة..

أرى علامات الخيبة على كل من يرتدي زيًّا مماثلاً لزي هذا اللاعب الذي صوَّب الكرة.. ثم أسمع صوت الصافرة ينطلق عاليًا من فم هذا الشخص.. إنه يشير إلى منتصف الملعب.. يهرول اللاعبون إليه باستنكار شديد.. إنه المشهد المعتاد.. أن يعترض لاعبو كل فريق على صافرة الحكم التي تخرج في

صالح الفريق الآخر.. ولكن يبدو أن هناك أمرًا غير مألوف هذه المرة.. فلاعبو الفريقين يهرولون نحوه..

لقد قرر حكم المباراة، الذي أشجعه أكثر من الفريقين أنفسهم، أن الكرة قد احتُسبت هدفًا.. على الرغم من أنها لم تدخل المرمى من الأساس.. فانطلق لاعبو الفريقين ليوضحوا له هذا الأمر.. أو ربما ليحاولوا إقناعه أن يرتدي نظارة طبية.. ربما تحسن من أدائه في الفترة المقبلة!

المشكلة أن كابتن «صلاح» كان «أهلاوي» بدرجة شبه مرضية.. ولهذا فهو كان يطلق صفارته في اتجاه واحد طوال المباراة التي انتهت بعد ذلك بالتعادل السلبي.. وبمنع كابتن «صلاح» من التحكيم في الدوري الممتاز من الأساس!

- الله يكسفك!

هتف لسان حالي من داخلي.. وأغلقت التلفاز بغضب واضح!

لم أرَ وجه الأستاذ «صلاح» ثانيةً على شاشة التلفاز.. ولم يتغيَّب من المدرسة بعدها..

5

أقف بجوار الطابور الصباحي مرتديًا تلك الشارة الحمراء في كتفي اليمنى.. أتابع فعاليات الطابور اليومي التي لا تتغير في الأغلب طوال أيام

العام.. بل إنني حتى كنت أعتقد أن أخبار الصباح التي يتلوها علينا ذلك الطالب يوميًّا لا تتغير إلا كل أسبوعين أو ثلاثة.. نفس الوجوه الناعسة التي تطلب الإذن لتصل إلى فصولها.. حتى تبدأ قيلولتها المبكرة التي لا تنتهي إلا بنهاية الحصة الأولى على أقل تقدير..

– بست.. بست.. هتلعب معانا في الفسحة النهارده ولا لأ؟ أحطك في فريق؟

أنظر بطرف عيني إلى صديقي الذي يقف في الطابور.. إنه يبدو صارمًا منتبهًا.. ولكنه يحدثني بطرف فمه دون أن ينظر إليَّ.. إنه يتحدث في أمر مثير للاهتمام بالفعل..

يحتِّم عليَّ واجبي بارتدائي تلك الشارة الحمراء أن أخرجه من الطابور.. ليذهب إلى الأستاذ «صلاح» ليلقى عقابه، الذي سيكون في المعتاد أكثر من ضربة بالعصا ستسقط على كفه الصغيرة.. لكنه صديقي الأقرب.. ينبغي أن تكون هناك بعض الاستثناءات.. كما أنه يتحدث في أمر يخصني.. وهذا – من وجهة نظري – يعفيه من العقاب.

– أيوه طبعًا اعمل حسابي.. بس مش هلعب في الفريق مع «حازم».. أنا هلعب معاك..

– مش هينفع لو هتلعب يبقى مع «حازم» في الفريق.

- «حازم» لأ!!

خرج اسم «حازم» من فمي عاليًا هذه المرة.. حتى إن الفصل كله قد التفت إليّ بطرف عينه.. بعض العيون نظرت إليّ بشفقة واضحة.. إنهم يدركون جيدًا معنى أن أرفع صوتي في أرض الطابور.. خصوصًا في وجود الأستاذ «صلاح»..

- اللي بيتكلم في أولى أول والشرطة اللي جنبه.. الاتنين ييجوا عندي هنا..

أنظر إلى المنصة بتعبير سانج! إنه لا يعنيني أنا بالتأكيد.. أشير إلى صدري هاتفًا:

- أنا يا أستاذ؟

- أيوه.. انت واللي جنبك..

ينظر إليّ زميلي نظرة لائمة.. ستكون السبب في بضع ضربات على كفينا..

لا أصدق أن يُفعل بي هذا.. لقد تطوعت في الشرطة المدرسية لأكتسب القوة التي ستحميني من تلك الضربات التي كنت أخشاها.. هل يمكن أن أفقد هذه الميزة؟ هل سيخونني الأستاذ «صلاح»؟

كانت يداي المتورمتان خير دليل على أنه قد باعني.. وكان هذا آخر

عهدي بالشارة الحمراء في كتفي..

لم يستمر الأستاذ «صلاح» في المدرسة.. فقد سافر في إعارة لإحدى دول الخليج.. كنت أعرف أنه لن يعود.. ولم يعُد!!

العجوز الذي أعرفه

1

لم يكن الأمر يحتاج للكثير من قوة الملاحظة كي تكتشف أنهم غير موجودين هذا الصباح في شرفتهم المطلة على مدرستنا الإعدادية العريقة.. فقد كان وجودهم يوميًا كل صباح في ميعاد الطابور الصباحي أمرًا مؤكدًا.. ولهذا كان غيابهم أمرًا ملحوظًا لكل من يعرفهم.. بل وينتظر أن يراهم كل يوم.

كان عجوزًا تقليديًّا.. ضئيل الجسم.. يرتدي هذا الروب الأزرق الداكن.. وغطاء رأس من الصوف تبدو من تحته بعض الشعيرات البيضاء التي تشي بأنه يتجاوز السبعين من عمره، على أقل تقدير.. أبيض البشرة.. تبدو عيناه الدامعتان دائمًا من خلف عويناته الذهبية..

وكانت هي محنية الظهر.. ضئيلة الجسم كزوجها.. لا تبدو أنها أصغر منه بكثير.. ترتدي ذلك الروب الأسود المخملي.. كانت تجلس بجواره دومًا..

كنت تشعر أنهما يتكئان على بعضهما البعض..

كثيرًا ما كنا نراه يقف ليسندها وهي تدلف إلى الشرفة.. حاملة تلك الصينية النحاسية التي تحمل كوبين من شاي الصباح..

لم نعرف اسم أحد منهما أبدًا.. ولم نعرف لغز وجودهما كل صباح في شرفة منزلهما.. حتى في أشد الأيام برودة.. بل لم نكتشف سر متابعتهما

لطابور الصباح في مدرستنا بهذا الاهتمام.. فهو يجلس على مقعده المجاور لسور الشرفة الخشبى القديم.. يتابع فعاليات الطابور باهتمام شديد.. يستمع إلى الإذاعة المدرسية.. بل وقد تراه يهز رأسه رضاء عن أخبار الصباح..

لم يبتسم أبدًا.. ولكننى أيضًا لا أعتقد أنه قد غضب في يوم ما..

كثيرًا ما كانا مادة لحديث يدور بيننا في أرض الطابور.. تتناثر الأقاويل عن أنه مدرس على المعاش.. لم يرزقهما الله بأطفال.. ولهذا فهو يتابع الطابور باهتمام..

كانت القصة مقنعة نوعًا ما.. ولكننى لم أجد لدى كل من أعرفهم في مدرستى ما يدل على صحتها..

كان غيابهما مريبًا بالفعل.. فللمرة الأولى منذ دخولى الصف الأول الإعدادي لم أرَهما صباحًا.. بل إنها المرة الأولى أيضًا التى أرى فيها الأبواب الخشبية لتلك الشرفة مغلقة.. لم يكن الأمر طبيعيًا..

لا أدري لماذا اعترانى هذا الإحساس بالقلق عليهما.. بل ولماذا شغل غيابهما فكري بهذه الطريقة.. هل هو الاعتياد الذي جعلنى أفتقد وجهه المتجمد هذا اليوم، أم أن القصة المتداولة عنهما بأنهما لم ينجبا أطفالاً هى ما جعلتنى أشعر نحوهما ببعض الشفقة التى حالت سنوات عمري القليلة دون التعرف عليها داخلى.. فظننت أنها صداقة من نوع خاص..

لم يكن العجائز محبوبين للأطفال في هذه المرحلة العمرية.. بل إنهم قد

ينبعثون فيهم الشعور بالرهبة غير المبررة.. لكن عجوز الصباح كان يختلف.. لسبب ما كنت أرى فيه لمحة أبوية محببة للنفس.. لم أخشَ وجهه المتجمد أبدًا.. بل بالعكس.. كنت أتفاءل به كل صباح..

مرت أيام كثيرة.. وتكرر غيابهما كل صباح.. لم يعد الأمر يحتمل التخمين.. يبدو أن أحدهما مريض.. أو أن أحدهما... لا.. طردت تلك الفكرة السوداء من ذهني سريعًا.. لم يُصَب أحدهما بمكروه..

والواقع أنه ليس أمرًا مستبعدًا.. فكلاهما بلغ من العمر ما يجعل هذا الحدث أمرًا متوقعًا كل لحظة.. ولكن يبدو أن الأطفال لا تعترف بقانون الزمن.. أو لأن ارتباطي الغامض بهما جعلني أستنكر ألَّا أراهما ثانية..

ينبغي أن أجد وسيلة للاطمئنان عليهما..

2

– «عمرو».. بقولك إيه.. ما تيجي معايا بعد المدرسة نطلع العمارة اللي قدامنا دي؟

نظر إليّ صديقي في استنكار:

– ليه؟ عاوز إيه من العمارة دي؟

– فاكر الراجل اللي كان بيبقى قاعد كل يوم الصبح في البلكونة هو ومراته؟ بقاله أسبوعين مش باين.. ما تيجي نسأل عليه؟

نظر إليَّ صديقي نظرة مطولة:

– قصدك العجوز اللى بيقعد كل يوم الصبح في البلكونة اللى قصادنا؟ ده شكله يخوِّف يا عم.. ثم انت مجنون يابنى؟ انت تعرفهم أصلا؟

ابتسمت في خجل وأنا أجيبه:

– لأ.. بس دول عِشرة..

طالعت عيناه وجهي.. ثم أشاح بوجهه بعيدًا وهو يتمتم:

– ربنا يشفى..

ورفع صوته وهو يقول:

– روح انت.. ربنا يكتّر من أمثالك يا «محمد»..

كنت قد اتخذت القرار بالفعل.. سوف أصعد إليهما بعد انتهاء اليوم الدراسي.. فقط كنت أستجمع شجاعتى بأن أصطحب معى أحد الأصدقاء.. ولكنه خذلنى.. لا بأس.. سوف أذهب منفردًا..

لقد كان الفضول يقتلنى.. أو ربما هي الصداقة بالفعل..

3

أتأمل تلك الدرجات المتهالكة.. وذلك السور الخشبي.. فأمسك به في توجس.. وأبدأ في صعود الدرجات بهدوء.. الظلام يغلف كل شيء.. على الرغم من أننا في منتصف النهار.. المنزل قديم بشدة.. إنها تلك البيوت

القديمة التي تم بناؤها بالحجر وليس بالطوب الأحمر.. والتي تحوي سقوفًا من ألواح الخشب العريض.. التي تشعر بالبرودة داخلها دومًا.. حتى لو كان الجو حارًا في الخارج..

لم يستغرق صعودي ذلك السلم الكثير.. فهما يقطنان في الدور الأول.. لا مجال للخطأ في المنزل؛ فالدور لا يحوي سوى باب واحد.. أي أن الدور يتكون من شقة واحدة..

ألمح زرًا أسودَ مستديرًا بجوار الباب.. يبدو أن أحدًا بالداخل؛ فالزجاج الذي يملأ الجزء العلوي من الباب يشي أن نورًا بالداخل..

أتردد أن أضغط على هذا الزر.. ثم أستجمع شجاعتي وأضغط عليه ضغطة صغيرة..

وكأن صوت الجرس المرتفع قد أزعج هذا الظلام.. فأبتعد قليلاً عن الباب.. في انتظار أن يفتح أحدهما..

لحظات طويلة مرت.. حتى انفرج الباب عن شاب حليق يرتدي حلة كاملة.. ويمتلك عينين تنظران إليَّ في تساؤل:

– نعم؟ عاوز مين يا حبيبي؟

– لو سمحت يا عمو.. جدو اللي ساكن هنا فين؟

تحوّل التساؤل في عينيه إلى استنكار مشوب بالدهشة وهو يجيب:

– جدو؟ جدو مين يا بابا؟ انت عاوز مين بالظبط؟

بدأت قطرات العرق في الانسياب على جبهتي.. وبدأ جسدي في الارتجاف.. المشكلة أنني لم أعمل حسابًا لهذه الأسئلة.. فلم أكن أتوقع أن أجد أحدًا غير العجوزين.. والمشكلة الأكبر أنني لا أعرف حتى اسم العجوز.. ترددت وأنا أجيبه:

– جدو.. اللي ساكن هنا حضرتك..

بدت على ملامحه علامات الارتياب.. لكنه تأمل زيي المدرسي وحقيبتي المكتظة التي أحملها على ظهري فاطمأن قليلاً.. ثم سألني بغتة:

– قصدك الأستاذ «حلمي» ومراته؟

وكأن الرجل قد ألقى إليَّ بطوق النجاة.. فهتفت بصوت كمن وجد غايته.. لقد عرفت أخيرًا اسمه:

– أيوه هو!

– بس ده مات يا حبيبي من أسبوعين تلاتة.. ومراته حصلته بعدها بكام يوم.. وابنه اللي كان عايش بره باع لي الشقة دي بالحاجات اللي فيها.. ده أنا لسَّة النهارده جاي أشوف صرفة لشوية الكراكيب دي..

كان رده كصاعقة هبطت على رأسي الصغير.. فقد كانت أعوام عمري القصير لا تستوعب فكرة الموت بهذه الصورة المفاجئة.. ترقرقت في عيني

الدموع.. ولكنها لم تفصح عن نفسها.. وجدت نفسي أجيبه بصوت مخنوق:

- شكرًا يا عمو..

لم يكن الأمر مرضيًا له.. فقد عادت إليه نظرات الريبة وهو يسألني:

- انت مين بقى؟ قريب الأستاذ «حلمي»؟

كنت قد استدرت لأهمَّ بالنزول على درجات هذا السلم المتهالك.. نظرت إليه في صمت.. ثم واصلت نزولي دون أن أجيبه..

وصلت إلى مدخل البيت القديم.. فأغمضت عيني من ضوء الشمس الذي فاجأني بعد أن كانت عيناي قد اعتادتا الظلام.. ثم بدأت الدموع المحبوسة تجد طريقها..

لقد كان الأمر صادمًا بالفعل.. القصة كلها تدعو للرثاء.. والأكثر بؤسًا أنهما قد أنجبا ولدًا.. لكنهما ماتا وحيدين..

كنت أشعر بالرغبة الشديدة في رؤية وجه هذا الرجل وزوجته ثانية.. أشعر أنني أريد أن أقدم لهما اعتذارًا باسم الإنسانية كلها.. لقد مات الأستاذ «حلمي» ولم تستطع زوجته احتمال الدنيا بعده.. فتبعته سريعًا.. لقد كانا يستأنسان بالضجة التي نحدثها في المدرسة.. كانا يواجهان الوحدة التي يشعران بها.. وغياب ابنهما الوحيد الذي تركهما حتى اللحظة الأخيرة..

أخذتني الأفكار حتى وصلت إلى منزلي ووجدت أمي تنظر إليَّ في

انزعاج:

– ما لك يا ولد؟ بتعيط ليه؟ حد ضربك؟

تجاهلت أسئلتها وأنا أرتمي في حضنها وأهتف:

– أنا منش عاوز أسيبكم أبدا يا ماما..

لم أنسَ الأستاذ «حلمي».. صديقي العجوز.. الذي لم يعرفني أبدًا..



الفصل الثالث

«لقد أوهمونا أننا حينما نصير كبارًا سنفهم.. ولكننا كلما تقدم بنا العمر نكتشف الحقيقة المؤلمة؛ فلا أحد يعرف شيئًا على الإطلاق!».

الابتسامة الحزينة

1

يرتفع الصوت المميز لدراجته البخارية.. ثم يدخل إلى فناء المدرسة الثانوية العريقة على ظهرها كما يحب أن يفعل دومًا.. إنه لا يفضل أن يهبط من عليها ويدخل المدرسة ممسكا بها بجواره.. بل هو لا يفضل أن يهبط من عليها مطلقا كما نعتقد جميعا..

المشهد كوميدي للغاية.. الدراجة البخارية الصغيرة تئن تحت أطنان الدهون التي يخزنها الأستاذ «عثمان» في جسمه السمين.. لكنه يقول دائمًا إنها عشرية وبتحبه وبتستحمله..

لم يكن أبدًا النموذج المثالي لمدرس اللغة العربية الذي يتحدث بالفصحى.. ولكنه كان بارعًا في مادته بالفعل..

يقولون إن البدانة ترتبط بخفة الدم وطيبة القلب.. ولم يكن الأستاذ «عثمان» استثناءً للقاعدة.. بل كان أكبر تأكيد لها..

إنه أشهر مدرس للغة العربية في المدرسة.. وربما في محافظته الصغيرة بالكامل..

الأستاذ «عثمان» يحب الطعام كما تحب أنت الحياة.. ولكنه يعاني كل

أمراض السمنة.. فالطعام لا يبادلك الحب في معظم الأحيان..

2

- عاوزين نعمل مجموعة وناخد درس عند حضرتك يا أستاذ.

ينظر إليَّ في بساطة.. كثيرًا ما احترت في تفسير تلك الابتسامة التي لا تفارق وجهه تقريبًا.. حتى أدركت في نهاية العام الدراسي أنها ليست ابتسامة.. ولكنها تعبيرات متجمدة على وجهه بسبب اكتظاظ خدوده بالدهون..

- ماشي يا «محمد».. هشوف المواعيد وأقولك.. انتو كام واحد وهتاخدوا فين؟

- إحنا أربعة.. وعاوزين ناخد عندي في البيت.. وكلنا من تالتة تاني.

كان الحافز الذي أقدمه له مغريًا.. فنحن جميعًا من فصل المتفوقين.. سوف يقبل.. وقد كان..

3

- اصحى يا «معتز» واعرب دي بعد إذنك وبعد كده نام تاني.

صاح بها الأستاذ «عثمان» لصديقي وهو يشير إليَّ أن ألكزه في كتفه ليستيقظ..

- هي فين الجملة يا أستاذ «عثمان»؟

يفرك «معتز» عينيه وهو يبتسم..

- قدامك على السبورة يا «معتز».

- ما شاء الله.. هو كمان فيه سبورة؟

ينفجر الفصل في الضحك الهيستيري.. إنها تلك الضحكة التي ينتظرها الطلبة دائمًا.. ليتخلصوا من الملل الذي يعتريهم في أثناء الدروس..

«معتز».. زميل التختة في المرحلة الثانوية بالكامل.. وزميل المجموعة عند الأستاذ «عثمان»..

يحاول السمين – طيب القلب – أن يُبدي على ملامحه غضبًا مصطنعًا وهو يقول:

– اطلع بره يا «معتز»..

يبتسم «معتز» ويهم بالخروج من الفصل.. بالتأكيد سوف يجد مكانًا ينام فيه حتى تنتهي الحصة..

يعلم أن الأستاذ «عثمان» ليس غاضبًا منه بالفعل.. ولكنه «منظر» أمام باقي الطلبة..

الأستاذ «عثمان» لا يغضب أصلا من أحد..

4

- يا ريت يا «محمد» الشاي يكون من غير سكر.. أصلي بعمل ريجيم.

يبتسم «معتز» ابتسامة ساخرة.. فأتمالك نفسي بصعوبة قبل أن أنفجر ضاحكاً:

- حاضر يا أستاذ.

إنه يصرح هذا التصريح في كل مرة.. ويلتهم «الكيك» الذي تقدمه له والدتي في أثناء الدرس بالكامل!

الأستاذ «عثمان» يؤمن أن الحمية التي يمارسها لا تنطبق على الكيك الذي يتعاطاه.. هو يفترض أن الحمية تتحقق بمجرد أن تنوي أن تفعلها.. فلا تحتاج بعدها لحرمان نفسك من أي شيء.. يكفي النية فقط..

يسير الدرس في مساره المعتاد.. إنه عبقري في مادته.. لا شك في هذا.. على الرغم من أنه لا هيئته ولا أسلوبه في الحوار يدلان على هذا..

والواقع أن معظم مدرسي تلك المرحلة الحرجة في التعليم – أعني الثانوية العامة – يمتلكون ملكة تصوير الامتحان للطالب بصورة دقيقة.. فلا يحتاج الأمر لأن تكون ضليعاً في اللغة العربية لتحصل على درجات مرتفعة في الاختبار.. يكفي فقط أن تستمع إلى كلام مدرسك..

الأستاذ «عثمان» يعرف جيداً كيف يجعلك تحصل على الدرجات التي تريدها.. ولكنه في الوقت نفسه ضليع في اللغة العربية..

5

- «محمد».. الكتاب ده بتاع مين؟

كان يمسك بيده ذلك الكتاب القديم الذي اصفرت صفحاته.. والذي يشي من حجمه بأنه من أمهات الكتب..

أتأمل عنوانه في لا مبالاة واضحة.. إنه «الأغاني» للأصفهاني.. فأجيبه ببساطة:

- بتاع جدي الله يرحمه..

ثم أستدرك:

- أصله كان «درعمي» يا أستاذ.

و«الدرعمي»، لمن لا يعرف، هو الذي تخرج في كلية دار العلوم.. وهو شرف كان، في بدايات القرن الماضي، عظيمًا بالفعل..

ينظر إليَّ الأستاذ «عثمان» في توسل واضح:

- طب ممكن تديهولي؟ لو الوالد هنا أنا ممكن أستأذن منه.

أنظر إليه في تعجب.. ماذا يحوي هذا الكتاب القديم ليشد انتباه الأستاذ «عثمان» إلى هذه الدرجة؟

- من غير حاجة يا أستاذ.. الكتاب تحت أمرك.. أنا أصلا حاولت أقراه وما فهمتش حاجة.

يتناول الكتاب في سعادة واضحة.. وكأنه حصل على كنز:

- متشكر يا «محمد» يابني.. مش هنسالك الجميل ده أبدا.

لقد كان سعيدًا كالأطفال.. ولكنني كنت أسعد بالفعل.. فقد كنت السبب في هذه السعادة..

6

- عاوزين نشوفلك عروسة يا أستاذ.

يهتف بها «ممتز» في سخرية أثناء الدرس الأسبوعي.. فينظر إليه الأستاذ «عثمان» في طيبة ثم يجيبه:

- يلاّ إيدي على كتفك.. بس عاوز واحدة تستحمل الوزن ده كله.

ننفجر جميعًا بالضحك.. وتهتز أطنان الدهون التي يحملها في خديه المكتنزين.. إنه لم يتزوج على الرغم من أنه تجاوز النصف الأول من الثلاثينات.. لم يعرف أحد منا السبب.. على الرغم من أنه لا يعاني مشكلات مادية كمعظم المدرسين.. كما أنه ريفي الأصل.. فلن يكلفه الزواج الكثير..

لم نكن نسخر منه وقتها بقدر ما كنا نرغب بالفعل في إسعاده.. فهذا الطفل الكبير لا تملك أمامه إلا أن تحبه بالفعل..

يتوقف الدرس تمامًا.. ويتحول الحوار حول ترشيحاتنا لعروسه المستقبلية.. ومن التي يمكن أن تصلح بين المدرسات التي نراهن في المدرسة.. لا يحاول الأستاذ «عثمان» إسكاتنا.. فهو لا يملك أصدقاء من الأساس.. ولهذا فهو يعتبر الطلبة أصدقاءه.. فيتحدث معهم بأريحية قلّما تجدها من مدرس

للمرحلة الثانوية تحديدًا..

كثيرًا ما سألنا أنفسنا: لماذا نحب هذا الرجل؟

أعتقد أنني عرفت الإجابة بعد هذه السنوات..

7

إنه يوم الخميس..

إنها أصوات التلاميذ المبتهجة بانتهاء اليوم الدراسي.. وبداية الإجازة الأسبوعية.. إنها اللمعة التي تبدو في عيون الموظفين المرهقة وهم يحلمون بساعات إضافية من النوم.. إنه صوت النفير المزعج لتلك السيارات التي تقل عروسًا في شوارع المدينة الهادئة.. إنها تلك المقاهي التي تفتح أبوابها حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.. إنه يوم الخميس..

أرتدي حلتي السوداء التي ابتعتها لأحضر بها الامتحانات الشفوية في كليتي العملية.. أتأمل رابطة العنق التي لا أجيد ربطها.. ثم أذهب إلى حجرة أبي لأختلس قطرات من ذلك العطر الثمين الذي يحتفظ به في دولابه الخاص.. إنه يوم مميز.. يستحق أن أكون مهندمًا فيه إلى هذه الدرجة.. إنه فرح الأستاذ «عثمان»..

كنت قد وصلت إلى السنة الرابعة في تلك الكلية العملية الشهيرة.. حتى رأيت تلك الدراجة البخارية التي تئن تحت أطنان الشحوم فوقها.. إنه

الأستاذ «عثمان» الذي يستوقفني في الطريق.. لقد عانقني بحرارة.. دون أن يهبط من على دراجته كالمعتاد.. ثم يدعوني لحضور حفل زفافه بعد أيام قليلة.. كم كنت سعيدًا بالفعل.. سوف يتزوج هذا الراهب أخيرًا.. كم كنت أتوق لأن أرى ذريته.. سوف ننتظر مجموعة من الأطفال الذين يحملون السمنة نفسها.. ولكنهم بالتأكيد يحملون الابتسامة الطيبة نفسها..

- طب مش هتشتري عربية بقى يا أستاذ؟ الموتوسيكل ده مش هيكفيكم.

يجيبني بابتسامته المعهودة:

- هشوف عربية مستعملة قريب.. انت بس ما تنساش الفرح يا دكتور.

مزيج من السعادة والفخر.. إنه يتشرف بي.. سوف أحضر هذا الفرح بكل تأكيد..

أدلف إلى تلك القاعة الصغيرة.. الملحقة بأحد مراكز الشباب.. أتأمل وجوه الحضور التي بدأت تتابعني.. معظم الحضور لا يرتدون سوى ملابسهم التقليدية.. الكثير يرتدون الجلباب.. أتطلع بعيني إلى «الكوشة».. لا أستطيع أن ألمح العريس وسط ذلك الزحام الراقص.. الكثير من الشباب الذين يرقصون على تلك الأغنية الشعبية التي تدوي بقوة في أذني..

أقترب من «الكوشة» فألمحه يجلس في مقعده.. يبتسم في بساطة.. وتلمع جبهته بقطرات العرق.. يلمحني فيحاول أن يقف ليسلم عليَّ.. فأسارع لمنعه.. أحتضنه بحرارة.. ثم أسلم على العروس بإيماءة بسيطة.. فتجيبني بمثلها.. أنسحب سريعًا قبل أن تجتاحني دوامة الرقص المنصوبة أمام العروسين..

لقد تزوج الأستاذ «عثمان».. كم كنت سعيدًا..

8

أطالع تلك الصحيفة التي وجدتها أمامي في استقبال المستشفى الجامعي الذي أقضي فيه فترة الامتياز.. أبحث عن أي موضوع لتسليتي خلال تلك الساعات المملة المتبقية حتى تنتهي النوبتجية..

أتأمل تلك العناوين التي تمتلئ بها صفحة الحوادث.. إنها صفحة تليق باستقبال مستشفى بالفعل.. أبتسم بهدوء وأنا أتخيل أن المكان مناسب فعلاً لقراءة هذه الصفحة المليئة بالكوارث..

أعبر بعيني على العناوين بسرعة.. ولكن لا تلبث عيناي أن تستقرا على عنوان صغير:

- مصرع مدرس ثانوي بالمنيا هو وزوجته وأولاده في حادث مروع.

ينتابني الفضول كي أعرف من هو هذا المدرس.. فمدينتنا الصغيرة تتيح

لنا أن نعرف بعضنا جميعًا.. بالتأكيد سوف أعرفه بشكل ما..

أطالع تفاصيل الخبر.. يا الله! إنه هو.. ترتفع عيناي إلى تاريخ الجريدة.. لقد لقي مصرعه أمس الأول.

كنت أعرف أنه ابتاع أخيرًا تلك السيارة المستعملة التي كان يريدها.. وأعرف أنه أنجب توأمًا.. وكأن الحياة قد قررت أن تعوضه عن السنوات العجاف التي قضاها وحيدًا.. فقررَتْ أن تهبه نصيبه من الأولاد دفعة واحدة..

أشعر بالبلل الذي يُغرق وجهي.. حتى بدأت تلك القطرات الساقطة أن تعيق عينيَّ عن الرؤية أمامي.. فأمسحها سريعًا لأستكمل قراءة الخبر.. لقد صدمته مقطورة كبيرة وهو ذاهب إلى بلدته الصغيرة..

لقد مات الأستاذ «عثمان».. مات بعد أن قرر أنه لن يترك ذريته خلفه.. مات صاحب الابتسامة التي تحتار في تفسيرها.. والتي تكتشف بعد فترة أنها تغييرات متجمدة على وجهه من اكتظاظ الدهون..

- دكتور.. فيه حالة عاوزين نقيس لها الضغط.

أمسح دموعي سريعًا وألتفت إلى تلك الممرضة التي تقف على باب الحجرة:

- حاضر.. أنا جاي.

- ما لك يا دكتور؟ فيه حاجة؟

أتأمل وجهها الأسمر السمين.. ويمر من أمامي شريط من الذكريات قبل أن أجيبها في خفوت:

- لا أبدًا.. عيني الظاهر دخل فيها حاجة.

حصة الرسم!

1

– بس يا ولد انت وهو.. كفاية كلام صدعتوني..

هتفت بها أبلة «ناهد» في غضب مصطنع.. ثم عادت إلى المجلة التي تحملها في يديها.. إنها تقرأ حوارًا مع تلك الممثلة الشابة التي تزوجت حديثًا.. المزيج من نظرات الحسرة والإعجاب يرتسم على وجهها..

ترفع عينيها ثانية من داخل تلك المجلة.. وتتأمل تلك الحجرة الممتلئة بالأخشاب المكسورة.. وتزين جدارها أعمال فنية بسيطة.. قامت أبلة «ناهد» وزملاؤها من مدرسي التربية الفنية بتلك المدرسة الابتدائية بصنعها على أنها من صنع التلاميذ.. حتى يستطيعوا أن يحفظوا ماء وجههم حين يأتي السيد مفتش المادة للمرور على مدرستهم..

تمسك بحقيبتها لتخرج منها علكة لترميها في فمها بسرعة.. قبل أن تبدأ في مضغها بعصبية.. وتمد يدها ثانية لتخرج علبة لأدوات التجميل الرخيصة.. فتفتحها لتنظر إلى المرآة التي بداخلها على وجهها من زوايا متعددة..

تتأمل وجهها البيضاوي الأسمر.. وشفتيها المكتنزتين اللتين يغطيهما

ذلك الطلاء الأحمر.. وأنفها المدبب.. ثم تحاول أن تعدل من ذلك الحجاب الأبيض الذي يحيط بوجهها.. والذي تصر أن تربطه بطريقة معينة.. ليظهر معه الجزء العلوي من شعرها الأسود.. ويظهر معه الجزء السفلي من أذنيها.. لتستطيع أن ترتدي ذلك القرط الكبير الذي تحبه..

- والنبي قمر.. بس الحظ.

لم تكن ترى أن تلك الممثلة الشابة تختلف عنها كثيرًا.. إنها فقط الظروف التي جعلت منها ممثلة.. وجعلت من «ناهد» مجرد مدرسة للتربية الفنية في إحدى المدارس الابتدائية!

تعيد علبة أدوات التجميل إلى حقيبتها قبل أن تزداد عصبيتها وهي تتأمل النقود القليلة المتناثرة فيها.. إنها تستحق ما هو أفضل من هذا بالتأكيد!

يندفع «حازم» إلى مقدمة الحجرة جريًا حتى يصل إليها:

– أبلة «ناهد».. عاوز أروح الحمام..

يلهث «حازم» وهو يهتف بصوت مرتفع حتى تسمعه الأبلة.. على الرغم من أنه يقف أمامها مباشرة.. إلا أن الضجيج الذي يحدثه التلاميذ يجعل ذلك الأمر صعبًا بالفعل..

– روح بس ما تتأخرش..

ينطلق «حازم» خارج الحجرة سريعًا.. فتنظر هي إلى باقي التلاميذ قبل أن تصيح بعصبية:

– كفاية زيطة بقى يا جزم!

لم تكن حصص التربية الفنية مفيدة أكثر من أنها كانت فرصة للثرثرة التي يفتقدها التلاميذ في باقي الحصص.. حتى أبلة «ناهد» تعرف ذلك جيدًا.. فلم تكن حتى تهتم بأن تحدد موضوعًا للرسم.. وإنما كانت تترك الأطفال يتحدثون بحريتهم.. فقط كانت تكتفي بالصياح كل فترة بأن يصمتوا.. ثم تنهمك في قراءة إحدى المجلات التي كانت دومًا تحب ابتياعها..

أبلة «ناهد» تترك «حازم» يمارس هوايته في الذهاب للحمام كثيرًا.. ولهذا فـ«حازم» يحب أبلة «ناهد» كثيرًا.

2

– تعالى يا «حازم».. مين أحلى فينا: أنا ولا أبلة «سعاد»؟

إنه السؤال الشهير الذي يسأله الكبار لأي طفل يرونه.. بعضهم يعتمد على مدى قربه من الطفل لتكون الإجابة لصالحه.. والبعض الآخر يعتمد على قدرته على إرهاب الطفل ليفوز بالإجابة التي يريدها..

– أبلة «ناهد» حبيبتي.. أنا بحب أبلة «ناهد»..

يجيب «حازم» وهو ينظر لأبلة «سعاد» في توجُّس.. وينقل عينيه في

استجداء إلى «ناهد» لتكون حليفته إذا ما قررت أبلة «سعاد» الفتك به بسبب إجابته التي جعلتها تخسر هذا التحدي..

– شوف الواد.. حتى العيال يا «ناهد»؟!

تجيب «سعاد» في غضب مكتوم.. ولهجة ذات مغزى.

– حبيبي يا «حازم».

تهتف بها «ناهد» في سعادة سوقية.. قبل أن تمتد يدها لتقرب «حازم» إليها وتطبع على خده الصغير قبلة قوية.. لا تلبث أن تترك آثارًا من أحمر الشفاه الرخيص على وجهه..

– يا اخواتي.. إيه العسل ده كله؟!

أبلة «ناهد» طيبة للغاية.. فهي تربت على رأس «حازم» في حنان كلما رأته يبكي حين يضربه أحد المدرسين الآخرين.. ولأنها تتركه يلعب كما يريد.. ويذهب للحمام كما يريد أيضًا..

ليت المدرسين كلهم كأبلة «ناهد».. هكذا كان يهمس لنفسه.. هكذا كان يتمنى!

إنه لم يجاملها في شيء حين أجاب.. فهو يراها جميلة بالفعل.. والواقع أن نظرة الطفل للأشياء تعتمد اعتمادا كليا على مصالحه الشخصية.. بل تبدأ وتنتهي عند هذه النقطة.. حتى حب الطفل لأمه ينبع غالبًا من أنها تعتني به

كلية في سنوات عمره الأولى..

إنه لا يفهم لماذا يرى نظرات الزيبة في أعين المدرسين الآخرين كلما نظروا إلى «ناهد».. بل لا يدرك أيضًا لماذا تتشاجر أبلة «أحلام» مع زوجها الأستاذ «مرتضى» كلما وجدته يتحدث إلى «ناهد»!

إنه يتذكر هذا اليوم جيدًا.. لقد كانت «ناهد» تقف مستندة إلى الحائط في نهاية الممر المؤدي إلى مخزن المدرسة القديم.. تلوك تلك العلكة كالمعتاد.. وتعبث في ذلك العقد الطويل الذي ترتديه.. وأستاذ «مرتضى» كان يقف أمامها.. لقد كانا يبتسمان ويتحدثان بصوت منخفض.. إنه كان يجري وقتها ليبحث عن مكان يختبئ فيه من الصِّبية ليفوز في تلك اللعبة الشهيرة.. فتفتق ذهنه عن هذا المكان.. لكنه حين وجدهم خشي أن يكمل طريقه.. وهمَّ بالعودة ليبحث عن مكان آخر.. فوجد أبلة «أحلام» تهرول مسرعة وهي تصيح:

- بتعمل إيه عندك يا «مرتضى»؟!

لم يفهم معظم الحوار الذي دار بين ثلاثتهم وقتها.. لكنهم كانوا يتشاجرون في الغالب.. فقد كان صوت أبلة «أحلام» مرتفعًا للغاية.. وتلفظت ببعض الألفاظ التي تنبهه أمه دائمًا ألا يقولها.. لأنها «عيب». لقد انسحب يومها الأستاذ «مرتضى» في عصبية.. بينما استمر الحوار بين السيدتين يزداد حدة..

إنه لن ينسى هذا اليوم أبدًا.. كما لن ينسى أن أبلة «أحلام» سيئة للغاية.. فهي جعلت أبلة «ناهد» تبكي يومها..

لماذا يكرهون أبلة «ناهد»؟ لم يستطع الإجابة عن هذا السؤال وقتها..

3

إنها تلك الرحلة المعتادة لزيارة مدرستنا القديمة.. مَن مِنَّا لم يفعلها؟ كان «حازم» قد أنهى دراسته الثانوية.. ثم كان الاقتراح من أحد الزملاء أن يزوروا مدارسهم القديمة ليسلموا على مدرسيهم القدامى.. احتفالاً بدخولهم إلى المرحلة الجامعية.. كم كان اقتراحًا محببًا للنفس.. أن ترى وجوه مدرسيك القدامى.. بل وترى الفخر الذي يبدو في عيونهم وهم يرونك قد أصبحت أطول من معظمهم.. البعض سوف يتذكرك.. ولكن المؤكد أنك ستتذكر الجميع..

يدلف «حازم» إلى تلك المدرسة الابتدائية الصغيرة.. إنه يعرف هدفه جيدًا.. سوف يصعد إلى الدور الثاني حيث غرفة المدرسات القديمة.. إنه يريد أن يرى أبلة «ناهد».. سوف تتذكره.. إنه يعرف ذلك جيدًا..

يطرق طرقات خفيفة على الباب الخشبي القديم.. تنظر إليه إحدى المدرسات في تساؤل..

– أبلة «ناهد» موجودة؟

– أبلة «ناهد» مين؟!

أبلة «ناهد» بتاعة الرسم.. أنا كنت تلميذ هنا من ست سنين..

– قصدك ناهد خيري؟!

لم يكن يعرف اسمها بالكامل بالفعل.. فتردد لحظة ثم هتف:

- أيوه.

نظرت إليه تلك المُدرسة الجديدة نظرة طويلة.. وتأملت شاربه الذي ما زال ينمو حديثًا ثم قالت:

– وانت عاوزها في إيه إن شاء الله؟!

لم تكن لهجتها تبعث على الارتياح.. بل إن رائحة التهكم كانت واضحة للغاية..

– أنا كنت تلميذ هنا وعاوز أسلم عليها..

– يعنى انت ما تعرفش عنها حاجة من ساعة ما مشيت من المدرسة؟

– لا يا أبلة والله! !

كان يحاول أن ينفى عن نفسه التهمة التى لا يعرفها.. والتي وجد نفسه متهمًا بها!

أدارت تلك الأبلة الجديدة وجهها عنه ثم قالت:

– أبلة «ناهد» سابت المدرسة من مدة وما نعرفش عنها حاجة!

- شكرًا!!

ينصرف «حازم» مسرعًا كما لو أن شياطين الكون تطارده..

إنه يتعجب مما حدث! أين ذهبت أبلة «ناهد»؟! ولماذا تنظر إليه تلك الأبلة الجديدة بهذه الريبة؟!

لقد زار مدرسته القديمة.. ولكنه ما زال يحنُّ إلى أبلة «ناهد».. أين هي الآن؟!

4

لم يكن عامًا دراسيًا موفقًا.. لقد التحق بتلك الكلية العملية التي كان يتمناها.. لكنه لم يكن يتوقع أن تكون بهذه الصعوبة.. لقد وجد مجموعة جديدة من الأصدقاء استبدلهم بأصدقائه القدامى.. إنهم يسهرون معًا كل ليلة تقريبًا.. لقد تعلم التدخين حديثًا.. وتعلم معه أن «ساعة الحظ لا تُعوَّض».. فأصبح يقضي الكثير من ساعات الحظ معهم.. لا يبدو أنه سينجح هذا العام.. والأدهى أنه لا يبدو عليه الاهتمام بهذا الأمر أصلاً!

إنها الأعوام الأولى في الدراسة الجامعية.. حين تكتشف أن الأمر يختلف كليةً عن المدرسة.. وأن تفوقك القديم قد لا يشفع لك بالمرة.. إنه المزيج من الإحباط الذي يعانيه كل الطلبة في أول عام جامعي لهم.. والإثارة لتجربة كل جديد كان محرمًا في أعوام الدراسة الثانوية..

- النهارده هوديكم مكان جامد جدا..

هتف بها صديقه في خبث.. ينظر إليه «حازم» في برود مصطنع:

- إيه؟ قهوة جديدة؟!

- قهوة مين يا عم؟ النهارده هنعمل اختبار الرجولة.

يزداد فضول «حازم» تدريجيًّا وإن لم يتخلَّ عن تعبيرات وجهه الباردة:

- فين يعني؟

- هنروح عند «هويدا» يا معلم..

لم يكن يعرف من هي «هويدا».. لكن الفضول قد قتل القط من قبل.. سوف يذهب بالتأكيد.. على الأقل ليعرف من هي «هويدا»!

5

يصعد درجات ذلك السلم القديم في توجس.. يتأمل ذلك الباب الخشبي العتيق.. ثم يمسك بذراع صديقه:

- يابني انت جايبنا فين؟ البيت ده شكله ما يطمنش..

- تعالى بس ما تخافش.. مش هتندم صدقني.

إنه يعلم أنه سيندم بالتأكيد.. فلهجة صاحبه وحواره بالكامل يؤكدان أنه بصدد الدخول إلى أحد البيوت التي تمارس الرذيلة.. إنه يعلم هذا.. لكن

الإحباط الذي يعانيه جعله لا يرفض هذا العرض.. فضلا عن خوفه أن يبدو خائفا أمام صديقه.. إنه رجل.. وسيثبت هذا الآن..

المزيد من التوتر يعتريه.. طرقات خفيفة على الباب الخشبي جعلت صوتا نسائيا رفيعا يجيب من خلفه:

– مين؟

– أنا من طرف «سيد»..

ينفرج الباب في بطء وتظهر من خلفه امرأة بدينة.. تلطخ وجهها بالأصباغ بصورة مبالغ فيها، حتى إنك لا تستطيع تحديد عمرها.. لكنها لم تنجح في إخفاء التجاعيد التي تظهر تحت عينيها.. إنها تتجاوز الأربعين بكل تأكيد..

– أهلاً وسهلاً.. اتفضلوا..

يدلف «حازم» خلف صديقه.. إن التوتر يملؤه.. لكنه يحاول أن يبدو هادئًا غير مهتم.. كأنه معتاد على مثل هذا النوع من البيوت..

– اتفضلوا.. تشربوا إيه يا بهوات؟!

– مش عاوزين نشرب عشان مستعجلين.. إحنا جايين من طرف عم «سيد».. هو قالنا إنك هتظبطينا.

– من عينيَّ.. ده أنا هدلعكم دلع ما حدش شافه.. بت يا «ناهد».. شوفي

طلبات البهوات..

هتفت بها تلك المرأة الشمطاء ثم أطلقت ضحكة رقيعة قصيرة.. واهتزت أردافها وهي تحرك أطنان الشحم التي تحملها بعيدًا.. وتختفي داخل حجرة بجوار الباب..

- أيوه يا أبلة أنا جاية أهو.. أهلاً وسهلاً..

انبعث هذا الصوت النسائي من خلف الستارة التي تغطي الجزء الأيسر من الصالة.. ثم اهتزت تلك الستارة لتخرج من ورائها صاحبة الصوت..

- اتفضلوا ارتاحوا هنا.

تشير إلى مقعدين في ركن الصالة.. فيذهب «حازم» بعينيه إليهما ثم يدير عينيه ليرى تلك المرأة صاحبة الصوت..

تتسع عينا «حازم» في انبهار.. إنه لا ينسى ذلك الوجه البيضاوي الأسمر.. ولا ذلك الأنف المدبب.. حتى ذلك القرط الكبير الذي يتدلى من أذنيها.. إنها هي بالتأكيد.. لن تخدعه بتلك المساحيق الرخيصة التي تغطي وجهها.. والتي لم تنجح في إخفاء تلك الخطوط التي رسمتها السنوات على جبهتها!

- واحد واحد مش كده.. يلاّ مين هيبتدي؟

نطقت بها في ميوعة مصطنعة.. فنظر إليه صديقه في خبث قبل أن

يجيبها:

– حازم بيه الأول طبعًا.. ده ضيفنا..

تنظر إلى «حازم» وهي تحرك عينيها من أعلى إلى أسفل.. ثم تبتسم ابتسامة ذات مغزى قبل أن تجيب في دلال:

– وماله.. عينيٍّ لحازم بيه.

ينظر إليها «حازم» في حنان وهو يسترجع ذكرياته القديمة:

– ازيك يا أبلة؟!

تجيبه بضحكة رقيعة يبدو فيها أنها قد أُعجبت بالفعل بهذا اللقب:

– أبلة؟ إيه أبلة دي يا بيه؟ أنا لسَّة صغيرة ما كبرتش للدرجة دي.

– أنا مش قصدي إنك كبيرة عني.. أنا بقولك أبلة من وانا صغير!

كان يتخيّل أنها تتذكره كما تذكرها..

تتغير ملامح وجهها وتختفي تلك الابتسامة من على وجهها وتحل محلها ملامح قلق بالغ:

– وانت صغير؟ انت تعرفني؟

تهتف بها في توتر.. قبل أن يقف «حازم» فجأة.. وينظر إليها نظرة طويلة:

أنظر إلى هذا الطفل الذي يسيل من أنفه المخاط وتنبعث من ملابسه رائحة تدل على أنه لم يستبدلها منذ فترة.. إنه يحتقرنا جميعًا.. لا شك في هذا.. لكن المشكلة أن هذا الاحتقار قد يتحول إلى عدوانية عندما يكبر.. كيف لا ينتبهون إلى هذه النقطة؟

- إحنا عندنا 87 طفل في الملجأ.. وبيلاقوا أحسن رعاية..

يصرِّح هذا الكائن اللزج بهذا التصريح للأستاذ «رؤوف».. المشرف الذي حضر معنا في هذه الزيارة السخيفة..

إنه قصير القامة للغاية.. ممتلئ البطن لدرجة مضحكة.. سقط معظم شعره من المنتصف.. فقرر أننا غالبًا لن نلاحظ إذا ما أطال تلك الشعيرات الثلاث وجعلها تسري على رأسه من اليمين إلى اليسار! باختصار: إنه النموذج الذي ارتبط في ذهني باللزوجة حتى الآن..

إنه يكذب.. أعلم هذا تمامًا كما يدركه زملائي ويدركه الأستاذ «رؤوف».. ملابس هؤلاء الأطفال ورائحتهم تكذِّبه بشدة..

لم أبتسم في وجهه كما كان يفعل.. كما لم يبتسم الأطفال حين أتينا!

4

– أنا عاوز أكبر علشان أطلع من هنا..

كان هذا هو تصريح أحد الأطفال في ذلك الملجأ البائس حين سأله صديقي ذلك السؤال السخيف المعتاد:

- وانت بقى يا حبيبي عاوز تطلع إيه لما تكبر؟

لقد كانت الإجابة التقليدية بأنه يريد أن يصبح طبيبًا أو مهندسًا أو حتى ضابطًا – لأنه، للأسف، لا يعرف أن أبناء الملاجئ لا يتم قبولهم في كليات الشرطة ولا الكليات العسكرية – لكن إجابة هذا الطفل كانت صادمة بالفعل..

إنه يكره هذا المكان.. الأمر واضح لا يحتمل اللبس.. لكن الخطورة لا تكمن في أنه يكره المكان الذي يعيش فيه؛ فهذه الكراهية ستؤدي حتمًا إلى كراهية للمجتمع بالكامل.. إنهم يخلقون أعداء للمجتمع في هذا المكان.. لن ينتج هذا الملجأ مواطنين صالحين للمجتمع.. أستطيع أن أقسم على هذا..

أتأمل وجه هذا الطفل الذي لم يبلغ العاشرة.. ملامح وجهه تفوق سنوات عمره بالفعل.. إنه يبدو متجهمًا صارمًا.. بالتأكيد لا يحمل هذا الوجه الصارم وهذا الجسد الصغير أي مشاعر تنتمي للطفولة.. لقد كبر قبل الأوان.. ولكنه كبر بطريقة خاطئة.

- وانتو إيه اللي جابكوا؟

كان سؤاله الملحق بإجابته السابقة مربكًا بالفعل.. إنه يرفض هذه الشفقة المصطنعة.. إنه يرفضنا جميعًا..

- انت اسمك إيه؟

عمو «نادي».. فخامة الاسم تكفي

1

إنه أول أيام الدراسة.. مزيج غريب بين الفرحة والرهبة والاكتئاب.. إنها رائحة الزي المدرسي الجديد.. رائحة الكتب المدرسية.. باختصار: إنه يوم لا ينساه التلاميذ أبدًا..

أدخل من باب تلك المدرسة الثانوية العريقة في محافظتي الصغيرة.. متأخرًا على غير عادتي في معظم الأحيان.. ولكنه اليوم الأول في مرحلتي الثانوية..

ألمح عمو «نادي» يقف على الباب.. ممسكا بعصا طويلة رفيعة.. تهللت أساريري وأنا أتوجه إليه بنفسي.. فهو والد أعز أصدقائي منذ الابتدائية.. أعرف أنه يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في هذه المدرسة.. لكنني لم أكن أعرف أنه من الحماقة أن تتبادل معه حوارا في المدرسة..

- صباح الخير يا عمو..

ينظر إليَّ نظرة طويلة متأنية.. إنه لم يبتسم.. ثم ينظر إلى حذائي «الكاوتشوك» الأبيض.. ويسألني:

- ما هذا؟

أنظر إلى الأرض متعجبًا.. ثم أرفع عيني لأرد عليه.. ولكنني أشعر بـألم شديد في قدمي.. ثم أكتشف أن تلك العصا الطويلة قد هبطت عليه بقوة..

– فيه إيه يا عمو؟

– هنا مفيش عمو.. اسمي مستر «نادي».. والجزمة تبقى سودا.. وعلـى الله تيجي متأخر تاني!

أتراجع للخلف بعد أن التفت إلى طالب آخر يرتدي قميصا مخالفا:

– انت يا ولد.. تعالى هنا..

كان عمو «نادي» – أقصد مـستر «نـادي» – صـعبًا في المدرسـة.. هـذا مـا تعلمته في اليوم الأول في مدرستي الثانوية..

2

– «عمرو» موجود يا عمو؟

– موجود يا حبيبي.. خش صحِّيه..

كان «عمرو»، ابنه، أعز أصدقائي بالفعل.. وكان منزله كمنزلي.. فكلانا لا يمتلك أخوات من البنات.. فلا يعوق تجولنا في المنزل شيء.. كان من حقـه أن يدخل منزلي ويتجول بحرية.. وكنت كذلك..

- «عمرو» ابني بيحبك أوي يا «محمد».. خدوا بالكم من بعض.

كانت هذه نصيحته التي ينصحني بها كلما رآني..

والواقع أننا قد تربينا بطريقة مختلفة عن هذه الأيام.. ولهذا تجد أننا جيل مميز.. ليس لأنه أفضل من الجيل الذي يسبقه أو الذي يليه.. وإنما لأنه جيل قد تربّى بطريقة متشابهة..

لقد كنا نشاهد البرامج التلفزيونية نفسها.. ونسمع الأغاني نفسها؛ لهذا فنحن جيل يتميز بأن مفهوم الصواب والخطأ عنده واحد.. فلا اختلاف على ما الذي ينبغي فعله أو ما لا ينبغي.. ولهذا كان التقارب بين الأصدقاء أكثر بكثير؛ فالأهل لم يكونوا ليجدوا غضاضة في هذا؛ فصديق ابني – غالبًا – قد تربَّى كما ربيت ابني نفسه..

لقد أدركها عمو «نادي» مبكرًا.. ولهذا فقد قرر أن يكسب إخوة لأبنائه من دون جهد..

عمو «نادي» من أطيب الناس.. لكنني لم أستطع حب مستر «نادي» أبدًا!

3

- «محمد».. بابا عاوزك في البيت عندنا دلوقت حالاً.

لم يكن صوت «عمرو» مطمئنًا بالمرة.. لقد سافر عمو «نادي» إلى تلك الدولة الخليجية على سبيل الإعارة منذ أعوام.. وترك «عمرو» وحيدًا بسبب الكلية.. فأصبحت شقته هي ملتقى الأصدقاء التي نقيم فيها معظم العام الدراسي.. ولا نتركها إلا حين يعود في الإجازة الصيفية..

أتوجس خيفة من هذا اللقاء.. لكنني أطرق الباب بهدوء.. فيفتح لي «عمرو» متجهمًا.. ثم يشير إليَّ:

- ادخل.

أرى مستر «نادي» في الصالة ينظر إليَّ في صمت.. ثم يشير إليَّ:

- تعال.

ندخل معًا إلى الحجرة الداخلية.. ما زلت أذكر أول أيام العام الدراسي.. يسألني في صرامة:

– انت بتشرب سجاير يا «محمد»؟

لم يكن أحد يعلم هذا السر الحربي الخطير.. يبدو أن خيانة حدثت من صديق العمر..

– هقول لحضرتك يا عمو...

انفجر في وجهي مقاطعًا:

– تقول إيه؟ انت أصلك اتجننت.. ده أنا هقطَّعك قبل ما أقول لأبوك!

الطريف أنه لم يخبر أبي أبدًا.. كان عمو «نادي» يتعامل معي بمنطق أنني مسئول منه مثل «عمرو» بالضبط..

ولكن الأطرف أنه مدخن شره.. ولم يتوقف حتى الآن..

4

- «محمد».. عاوزك تسافر معايا بكرة القاهرة.. معاد العملية بعد بكرة و«عمرو» مش موجود.. هتبات معايا وهو هييجي على العملية.

يعاني عمو «نادي» أمراضًا كثيرة بسبب التدخين والسمنة الزائدة.. لقد اشتدت آلام ظهره.. وأصبحت العملية حتمية..

كنا – أنا و«عمرو» – طبيبين تحت الإنشاء.. لكنه كان فخورًا بنا..

نصل إلى المستشفى الخاص ونجري إجراءات الدخول.. أخفي عنه علبة سجائره كما أوصاني الطبيب.. لكنه يبتسم ويقول لي:

– إحنا مش هناكل من أكل المستشفى الماسخ ده.. قوم بينا أعزمك على الغدا بره!!

نصل إلى ذلك المطعم الشهير.. يطلب عمو «نادي» وليمة كبيرة.. وبعد أن ننتهي من الغداء ينظر إليَّ في خبث:

– أنا عارف إن معاك سجاير.. هات سيجارة وهسيبك تشرب!

– بس يا عمو الدكتور...

– دكتور مين يا ولد؟ أنا دكتور نفسي.. وانتو تفهموا حاجة؟!

عمو «نادي» طيب للغاية.. ولكنه مهمل في صحته كالأطفال.

5

عمو «نادي» لا يهزمه أحد في الطاولة..

أبتسم وأنا أراه منفعلاً بعد أن هزمته مرة واحدة في حياتي.. وأراقب تعبيرات وجهه وهي تنقلب إلى غضب شديد بعد أن تمنَّعت عن استكمال اللعب معه..

ذكرياتي مع عمو «نادي» لا يكفيها بضعة سطور.. ما زلت أذهب إليه كلما اشتقت إلى ذلك المقهى الكائن على بُعد خطوات من منزله.. إنه يجلس هناك يوميًّا.. يدخن بشراهة.. ويسير بصعوبة..

لقد تُوفي أبي – رحمه الله – ولكنني ما زلت أحتفظ بعمو «نادي».. وما زلت أمقت مستر «نادي».

إنهم لا يبتسمون!

1

نصطف في طابور غير منتظم.. الطريف أن الجميع يبدأون في الدخول في أحاديث جانبية غير مهمة على الإطلاق.. بمجرد أن يطلب منهم الوقوف في صف منتظم..

الكل في انتظار أن يدلف إلى هذا الميكروباص.. الكل ينظر إليه بفتور وملل.. لا أحد يريد الخروج من المدرسة أصلا!!

كانت المرة الأولى التي أزور فيها ملجأ للأطفال.. لم يكن عمري قد تجاوز الخامسة عشرة.. ولكن المدرسة قررت أنها ستشارك في الاحتفال بيوم اليتيم بأنها ستنظم رحلة «إجبارية» لملجأ الأيتام المجاور.

البعض من الطلبة انتهز الفرصة للهروب من الدروس المتتابعة.. سنكسر الروتين الممل.. لكننا لسنا سعداء بالقدر الكافي.. فلا شيء يمكن أن يثير اهتمامنا في هذه الرحلة السخيفة!

لقد قاموا بتوزيع الهدايا علينا لنوزعها على الأطفال.. تلك العلب المغلفة بورق الهدايا اللامع.. التي تحوي بعض الألعاب البلاستيكية رخيصة الثمن.. الأمر كله يبدو سخيفاً للغاية.. سنمثل أننا مهتمون بهؤلاء الأطفال.. وسيمثلون أنهم سعداء بزيارتنا!

2

إنهم يعرفون أننا قادمون.. الكثير من الأطفال يلعبون في ذلك الفناء الذي انتُزعت حشائشه.. كلهم دون العاشرة تقريبًا.. حليقو الرأس بالكامل.. لا يبدو على أحدهم أي اهتمام بتلك المجموعة من الصبية الذين يرتدون زيًا كحلي اللون.

أقترب من أحدهم.. لا يبدو أنه قد اهتم بالهدية التي أحملها.. إنه يريد أن يجري بأقصى ما يستطيع.. يبدو أنه اعتاد مثل هذه الزيارات التي تنبعث منها نظرات الشفقة التي يكرهها.. يقترب طفل آخر من خلفي:

– ممكن آخدها أنا؟

– طبعا، كلكم ليكم هدايا حلوة خالص.

– طيب!

إنه لم يبتسم.. إنه لا يبتسم!!

زيارة اليتيم في الملجأ قد تكون ضرورية بالفعل.. لكنها غالبًا.. لا تسعده!

3

- اسمك إيه يا حبيبي؟

- وانت مالك؟!

أنظر إلى هذا الطفل الذي يسيل من أنفه المخاط وتنبعث من ملابسه رائحة تدل على أنه لم يستبدلها منذ فترة.. إنه يحتقرنا جميعًا.. لا شك في هذا.. لكن المشكلة أن هذا الاحتقار قد يتحول إلى عدوانية عندما يكبر.. كيف لا ينتبهون إلى هذه النقطة؟

- إحنا عندنا 87 طفل في الملجأ.. وبيلاقوا أحسن رعاية..

يصرِّح هذا الكائن اللزج بهذا التصريح للأستاذ «رؤوف».. المشرف الذي حضر معنا في هذه الزيارة السخيفة..

إنه قصير القامة للغاية.. ممتلئ البطن لدرجة مضحكة.. سقط معظم شعره من المنتصف.. فقرر أننا غالبًا لن نلاحظ إذا ما أطال تلك الشعيرات الثلاث وجعلها تسري على رأسه من اليمين إلى اليسار! باختصار: إنه النموذج الذي ارتبط في ذهني باللزوجة حتى الآن..

إنه يكذب.. أعلم هذا تمامًا كما يدركه زملائي ويدركه الأستاذ «رؤوف».. ملابس هؤلاء الأطفال ورائحتهم تكذِّبه بشدة..

لم أبتسم في وجهه كما كان يفعل.. كما لم يبتسم الأطفال حين أتينا!

4

- أنا عاوز أكبر علشان أطلع من هنا..

كان هذا هو تصريح أحد الأطفال في ذلك الملجأ البائس حين سأله صديقي ذلك السؤال السخيف المعتاد:

– وانت بقى يا حبيبي عاوز تطلع إيه لما تكبر؟

لقد كانت الإجابة التقليدية بأنه يريد أن يصبح طبيبًا أو مهندسًا أو حتى ضابطًا – لأنه، للأسف، لا يعرف أن أبناء الملاجئ لا يتم قبولهم في كليات الشرطة ولا الكليات العسكرية – لكن إجابة هذا الطفل كانت صادمة بالفعل..

إنه يكره هذا المكان.. الأمر واضح لا يحتمل اللبس.. لكن الخطورة لا تكمن في أنه يكره المكان الذي يعيش فيه؛ فهذه الكراهية ستؤدي حتمًا إلى كراهية للمجتمع بالكامل.. إنهم يخلقون أعداء للمجتمع في هذا المكان.. لن ينتج هذا الملجأ مواطنين صالحين للمجتمع.. أستطيع أن أقسم على هذا..

أتأمل وجه هذا الطفل الذي لم يبلغ العاشرة.. ملامح وجهه تفوق سنوات عمره بالفعل.. إنه يبدو متجهمًا صارمًا.. بالتأكيد لا يحمل هذا الوجه الصارم وهذا الجسد الصغير أي مشاعر تنتمي للطفولة.. لقد كبر قبل الأوان.. ولكنه كبر بطريقة خاطئة.

– وانتو إيه اللي جابكوا؟

كان سؤاله الملحق بإجابته السابقة مربكًا بالفعل.. إنه يرفض هذه الشفقة المصطنعة.. إنه يرفضنا جميعًا..

- انت اسمك إيه؟

- وانت مالك؟

كان رده عليَّ قاسيًا.. لكنني كنت أتفهمه..

5

- يلَّا يا ولاد.. اجمع هنا علشان هنمشي.

هتف بها الأستاذ «رؤوف».. والواقع أنني قضيت جزءا كبيرا من عمري أتساءل عن معنى كلمة «اجمع».. كنت أسمعها في المدرسة.. وكثيرًا ما سمعتها في الجيش أثناء فترة تجنيدي الإجباري.. ولم أعرف مغزاها حتى الآن.. ما الذي سنجمعه بالضبط؟

يبدأ الطلبة في الالتفاف حول الأستاذ «رؤوف».. اقترب منه وعيناي لا تفارقان ذلك الطفل المتجهم.. إنه ينظر إليَّ بشدة.. لم تفارق عيناه عيناي في تحدٍ مريب..

- يلَّا يا اولاد علشان ندخل جوه..

هتف بها ذلك الكائن اللزج بوداعة مصطنعة.. وهو يمسك الأطفال بيده.. أكاد أقسم إنه يتصنَّع تلك الطيبة.. ينظر إليه ذلك الطفل بحدة.. ثم ينطلق مسرعا فجأة في اللحظة نفسها التي يستدير فيها إلينا هذا الكائن.. ويقفز إلى أعلى.. ثم يهبط بيده على مؤخرة رأسه..

لم يستوعب أحد المفاجأة بعدُ.. فلم يلبث أن يهبط على الأرض.. حتى

ينطلق نحونا جاريًا حتى يصل إلـيَّ.. ويهتـف في صـرامة واقتـضاب.. وإن لم يخلوا من نبرة انتصار:

- اسمي «علي»..

ثم يعود جاريًا إلى داخل المبنى.. ويلاحقه ذلك الكائن اللزج هاتفًا:

- يابن الحرام.. وديني مانا سايبك.. تعالى هنا يابن الكلب..

أتمالك نفسي بعد لحظات من تلـك المفاجـأة.. ثـم ترتـسم علـى وجهـي ابتسامة خفيفة.. لقد تمكن من أن يكشف لنا زيف هذا المشرف الكريه..

لقد انتصر هذا الصغير في معركته القصيرة.. ولكنه ينتظر حتى يكـبر.. لينتصر في معارك أكبر..

تتسع ابتسامتي وأنا أهتف بصوت خافت:

- جدع يا «علي»..

«عادل».. من أحباب الله!

1

يمتلك «عادل» من المقومات ما يجعلـه زعيمًا مـستديمًا: قـوي البنيـة.. طويل.. ذو شخصية تستطيع أن تفرض نفسها.. إنـه يحتـاج للزعامـة دومًـا.. وينالها..

لم تكن علاقتي به متكافئة.. فهـو يـأمر ويقـرر ويفكـر.. ونحـن – أنـا وباقي زملاء الفصل – لا نملك سوى التنفيذ..

يمارس «عادل» هوايته الأثـيرة في الإمساك بتلـك الحـشرات الخـضراء التي نجدها في حوش المدرسة.. ثـم يلقيهـا في وجـه إحـدى الفتيـات.. يتلـذذ ضاحكًا حين تصرخ مفزوعة من الحركة أولاً.. ثم تواصل الصراخ حين تكتشف هذا الكائن – غير المؤذي – وهو يتقافز على ملابسها.. لم يكن الأمر سهلاً كي يقلَّد.. فقط «عادل» هو من يستطيع فعل هذا..

والواقع أن الأطفال يمتلكون كل الصفات السيئة الـتي نـتعلم ألَّـا نتـصف بها؛ فهم ساديون إلى درجة تجعل أطباء علم النفس يقفـون في انبهـار.. وهـم يراقبون تلك الضحكة وهي تخرج باستمتاع شديد من فم طفل.. بعد أن يتمكن من تصدير الشعور بالفزع أو الرعب أو حتى الألم للآخرين..

2

لم يكن استذكار الدروس أمرًا محببًا لـ«عادل».. ولهذا، فالأوقـات الـتي نقضيها داخل الفصل الدراسي لم تكن أفضل أوقات يومه.. لكنه كان يصر على الاستمتاع بها قدر المستطاع..

يحاول «عادل» أن يعبث في حاجيات زملائه في تلك اللحظة التي ينشغل فيها الأستاذ «محمد» – مدرس الدراسات الاجتماعية الملء كمادتـه تمامًا – عن النظر إلينا ويبدأ في كتابة شيء على اللوحة السوداء التي تتوسط الحائط..

ويتوقف في اللحظة المناسبة قبل أن يعود الأستاذ ببصره إلينا.. فيجد من يجلسون بجوار «عادل» يتحدثون إليه بلهجات متفاوتـة مـن اللـوم.. وهـو يجلس هادئًا وعلى وجهه وداعة قلّما تجدها حتى لدى الفتيات!

يعلموننا أن الأطفال أحبـاب الله.. ولكـنني لم أحـب «عـادل» قـط! ربمـا لأنني لست إلهاً! ! هكذا كنت أبرر لنفسي أول مشاعر للكراهية أحسست بها في حياتي..

والواقع أن كراهيتي له لم تكن بـسبب شقاوته المستمرة.. لكـن سببها الأساسي هو نظرة عينيه المتشفية دائمًا.. الـتي كانـت دائمًـا مـا يـصدر منهـا شعور بالكراهية للجميع.. إنه يكرهنـا جميعًـا.. لم يكـن صـعبًا علينـا حتـى ونحن في هذه السن المبكرة أن نعرف هذا.. فكيف يحب الله من يكرهنا؟!

3

أقف بسيارتي الصغيرة ضمن طابور طويل من السيارات التي تنتظر دورها لتمر من هذا الشارع الضيق.. أنظر في ساعتي قلقًا من أن يفوتني ميعاد المحاضرة.. ثم يمتد باطن يدي اليمنى ليضغط على منتصف المقود بعصبية بالغة.. فيصدر صوت مزعج من سيارتي تتبعه أصوات مشابهة من السيارات من خلفي.. كأنهم قد استمدوا الشجاعة مني ليبدأوا في الاعتراض على هذه العطلة غير المبررة.. أتلفّت يمينًا ويسارًا.. فألمحه يجلس على مقعد خشبي.. أمام أحد المقاهي.. إنه هو.. لن أخطئ تلك النظرة أبدًا.. النظرة المتشفية نفسها في شيء لا يعرفه أحد.. إنه يطيل ذقنه ليشبه هذا المطرب الشعبي الشهير.. وتتدلى من فمه سيجارة رخيصة وهو يتأمل الشارع المزدحم ببرود مستفز.. وتستقر أمامه منضدة معدنية تحمل كوبًا من الشاي.. لا يبدو أنه يجلس لغرض ما.. إنه الخواء الكامل..

أعرف أنه لم يتمكن من عبور الثانوية العامة في العام الأول.. ولا الثاني.. لكنه في تجربته الثالثة تمكّن من الحصول عليها بمجموع ضعيف للغاية لم يمكّنه إلا من الالتحاق بأحد المعاهد التي لا تدرس شيئًا.. ولا يعلم طالبها ماذا سيعمل عندما سيتخرج فيها..

كنت قد انتقلت من مدرستي القديمة إلى مدرسة أخرى.. فلم أتتبع

أخباره إلا بالصدفة حين ألتقي أحد الأصدقاء القدامى.. ثم تأتي الحياة الجامعية التي تتوسع فيها دائرة الصداقات إلى حدٍّ يصعب فيه أن تكوِّن صداقة حقيقية جديدة.. فتكتفي بمن تعرف من أصدقائك القدامى الذين دخلوا الكلية نفسها معك.. أو الذين يسهل عليك أن تقابلهم في أمسيات الخميس.. أعرف أنه لم يتمكَّن من الالتحاق بإحدى الكليات.. لكنني لم أشعر بالأسى تجاهه مطلقًا..

أنظر إليه في دقة وتركيز.. حتى تتقابل أعيننا.. لقد رآني كما رأيته.. لا أعلم لماذا ارتجفتُ للحظة حين تلاقت أعيننا.. لن أبدأ بتحيته.. سأنتظر أن يفعلها أولاً.. لكنه نظر إليَّ نظرة طويلة.. ثم أشاح بوجهه بعيدًا.. كنت أعرف أنه لن يفعلها.. لم أكن أريد أن أحييه.. ولكن لماذا أشعر بالإهانة؟!

4

أدلف إلى العناية المركزة بالمستشفى الجامعي الذي أقضي فيه فترة الامتياز اللعين.. تلك الفترة التي يتوقف فيها الزمن عندك.. فلا تعرف إن كنت قد تخرجت وأصبحت طبيبًا كما تتمنى، أم أنك ما زلت طالبًا.. لا أحد يعاملك كطبيب على الرغم من أنك ترتدي البالطو الأبيض المميَّز للأطباء.. وتستطيع أن تتحدث بتلك اللغة العجيبة.. التي هي مزيج من اللغتين اللاتينية والعربية.. مع كثير من الاختصارات الإنجليزية.. لكنهم ما زالوا لا

يثقون بك..

أتلفّت باهتمام باحثًا عن صديقي الذي أتيتُ من أجله.. وأحاول أن أشغل نفسي بعيدًا عن تلك النظرات الفضولية التي تلاحقني من المرضى الراقدين على أسرّتهم.. وتتمثل الخلفية الموسيقية للمشهد في أصوات الأجهزة التي تعلن أن الحياة ما زالت تدب في تلك الأجساد التي تخرج من أفواهها أنابيب التنفس.. لا أرتاح إلى هذا المكان قط.

أتوجه مسرعًا إلى صديقي الذي لمحته أخيرًا يقوم بقياس الضغط لأحد المرضى الراقدين على الأسرّة وتخرج منهم عشرات الأسلاك! أمسك بذراعه من الخلف قبل أن ينسحب بعيدًا ليمارس تلك المهمة البائسة..

– هنجيب عشا في السكن.. أجيبلك معانا؟

يلتفت إليَّ صديقي بطرف عينيه.. فألمح أطنان البؤس البشري الذي يحمله.. ثم يهتف بصوت خافت:

– مش عارف النائب هيسيبني أروح السكن ولا لأ الليلة دي.. شكلها ليلة سخنة.. أربع حالات جديدة مرة واحدة.. والدكتور «هاني» مش طايق نفسه..

– يعني إيه؟ أجيب ولا لأ؟

– لا يا عم خلاص فكك مني.. اتعشوا انتو وأنا هتصرف!

– براحتك.. سلام.

أستدير وأهمّ بالخروج من هذا المكان الكئيب.. أسير بين الأسرَّة ناظرًا إلى وجوه المرضى بكبرياء الطبيب الذي يعرف كل شيء.. حتى تقع عيناي عليه!

إنه هو بالفعل.. «عادل».. لقد عرفته على الرغم من هذا القناع الذي يغطي أنفه وفمه.. لا تمكِّنك الذاكرة من أن تنسى من تكرههم أبدًا.. إنه نائم.. أو بمعنى أدق: ليس في وعيه تمامًا.. عيناه نصف مغلقتين.. وتخرج من جسده أسلاك كثيرة.. لا يبدو أن حالته بسيطة..

أتأمل وجهه وهو في هذا الضعف! وألتفت هاتفًا إلى صديقي بصوت عال.. ثم أكتشف مدى حماقة هذا التصرف.. حين أتأمل كل تلك العيون التي تحدِّق فيَّ بغضب واضح! يأتي إليَّ صديقي مسرعًا وهو يتمتم بكلمات يبدو من حركات فمه أنها سباب من النوع الفاخر..

يهمس صديقي في حدة:

– عاوز إيه؟ يخرب بيتك!

– العيان ده اسمه «عادل»؟!

ينظر صديقي إلى الورقة المعلقة على حافة سريره ثم يجيبني:

– أيوه.. ماله؟ انت تعرفه؟

أتجاهل سؤاله وأهتف:

– عنده إيه؟

ينظر إليَّ صديقي بسخرية واضحة:

– زي مانت شايف.. شوية برد! يعني إيه عنده إيه؟ ما هو بيموت قدامك أهو.

ألتفت إلى تلك الشاشة المعلقة أعلى السرير الذي يرقد عليه.. لم أكن قد انتبهت إليها من قبل.. أتأمل علاماته الحيوية التي تشير إلى أنه ليس على ما يرام على الإطلاق!

– ده جه إمتى؟

– من شوية.. بعيد عنك دي جرعة مخدرات زيادة.. عملت له هبوط في عضلة القلب.. شكله مش هيعدي منها.

ثم يلتفت إليه ويضيف:

– اللي يزعلك يا أخي إنه لسَّة صغير.. ده مش أكبر مننا بكتير.

– وانت الصادق، ده أصغر مني بتلات شهور وسبع أيام!

– انت تعرفه؟!

أتأمل وجهه الذي يوشك أن يتحوَّل إلى مسخ.. أسترجع كل ذكرياتي معه في لحظة واحدة.. ثم أجيب صديقي باقتضاب:

- لأ.

وأنصرف مسرعًا قبل أن يسألني كيف عرفت أنه أصغر مني على الرغم من إنكاري معرفته!

أخرج من العناية مسرعًا.. لم أحب «عادل» قط.. لا أشعر بالشفقة عليه.. ولكن لماذا تسقط تلك العبرات من عيني بهذه الصورة؟!

الجميع أحباب الله.. ولكن البعض يصر أن يكفر بهذا الحب! و«عادل» واحد منهم!

- وانت مالك؟

كان رده عليّ قاسيًا.. لكنني كنت أتفهمه..

5

- يلّا يا ولاد.. اجمع هنا علشان هنمشي.

هتف بها الأستاذ «رؤوف».. والواقع أنني قضيت جزءا كبيرا من عمري أتساءل عن معنى كلمة «اجمع».. كنت أسمعها في المدرسة.. وكثيرًا ما سمعتها في الجيش أثناء فترة تجنيدي الإجباري.. ولم أعرف مغزاها حتى الآن.. ما الذي سنجمعه بالضبط؟

يبدأ الطلبة في الالتفاف حول الأستاذ «رؤوف».. اقترب منه وعيناي لا تفارقان ذلك الطفل المتجهم.. إنه ينظر إليّ بشدة.. لم تفارق عيناه عيناي في تحدٍّ مريب..

- يلّا يا اولاد علشان ندخل جوه..

هتف بها ذلك الكائن اللزج بوداعة مصطنعة.. وهو يمسك الأطفال بيده.. أكاد أقسم إنه يتصنّع تلك الطيبة.. ينظر إليه ذلك الطفل بحدة.. ثم ينطلق مسرعا فجأة في اللحظة نفسها التي يستدير فيها إلينا هذا الكائن.. ويقفز إلى أعلى.. ثم يهبط بيده على مؤخرة رأسه..

لم يستوعب أحد المفاجأة بعدُ.. فلم يلبث أن يهبط على الأرض.. حتى

ينطلق نحونا جاريًا حتى يصل إليَّ.. ويهتف في صرامة واقتضاب.. وإن لم يخلوا من نبرة انتصار:

- اسمي «علي»..

ثم يعود جاريًا إلى داخل المبنى.. ويلاحقه ذلك الكائن اللزج هاتفًا:

- يابن الحرام.. وديني مانا سايبك.. تعالى هنا يابن الكلب..

أتمالك نفسي بعد لحظات من تلك المفاجأة.. ثم ترتسم على وجهي ابتسامة خفيفة.. لقد تمكن من أن يكشف لنا زيف هذا المشرف الكريه..

لقد انتصر هذا الصغير في معركته القصيرة.. ولكنه ينتظر حتى يكبر.. لينتصر في معارك أكبر..

تتسع ابتسامتي وأنا أهتف بصوت خافت:

- جدع يا «علي»..

بعض الشطائر التي يتم إعدادها داخل المقهى برداءة تستحق الإعجاب.. لكننا كنا نصر على أن نأكل منها في كل خميس.. ونصر أيضًا على انتقادها طوال الأكل..

- أقولك حاجة يا بيه.. لو هتجيبلي أكل فعلا يبقى مش من هنا.. أنا عاوزك تجيبلي أكل من عند «بقدونس»!!

نطقها ذلك الطفل الذي تؤكد هيئته أنه لم يتجاوز السابعة من عمره بأي حال من الأحوال ببراءة شديدة.. وبتلقائية ممثل يجيد لعب دوره ببراعة.. ولكن كان اسم المطعم العجيب هو ما شد انتباهي! فلا أعتقد أن هناك مطعمًا يحمل هذا الاسم العجيب..

أسأله في استفهام ضاحك:

- مطعم إيه؟

يشير إلى جهة بعينها وهو يؤكد:

- مطعم «بقدونس» ده يا بيه.. والنبي معلش!

كان الإغراء أقوى من أن أحتمل.. قمت من مقعدي وأنا أجيبه:

- طب تعالى معايا وريني المطعم وأنا هجيبلك الأكل.

2

يسير أمامي في سرعة وسعادة.. يبدو أنه قد وجد ضالته أخيرًا.. نسير

أقل من خمسين مترًا فيشير إلى أحد المحلات وهو يهتف:

- أهو مطعم «بقدونس».. عاوز الأكل اللي معاه اللعبة!

أنظر إلى اللافتة وأنا أبتسم رغمًا عني.. وأكتم ضحكة كبيرة في داخلي.. فالمطعم كان أحد الفروع لأشهر المطاعم الأمريكية للأكلات السريعة.. الذي يحمل اسمًا أجنبيًا يصعب على هذا الطفل نطقه.. ولهذا فقد قام بتسميته باسم خاص به يحمل الوزن نفسه..

لم يكن عمر هذه السلسلة الشهيرة من المطاعم في مصر يتجاوز أعوامًا قليلة وقتها.. لذلك لم تكن لتجد الكثيرين ممن يعرفونه من الأساس.. فضلاً عن نطقهم لاسمه بصورة صحيحة..

كان هذا النوع من المطاعم هو من أدخل إلى مصر فكرة وجبات الأطفال التي لا تحتوي على طعام تقريبًا.. إنها شطيرة لا تكاد تُرى بالعين المجردة.. مصحوبة ببعض القطع الرفيعة من البطاطس المقلية.. ولكن تصحبها لعبة بلاستيكية رخيصة.. هي مصدر الجذب الأساسي لكل الأطفال كي يطلبوا هذه الوجبة.. لم يكن سعرها يتناسب تمامًا مع ما تحتويه من طعام.. ولكنها وسيلة فعالة للبيع..

أدلف إلى المطعم.. وأطلب من العامل أن يحضر له وجبة الأطفال الشهيرة الخاصة بالمطعم.. فيبادرني الطفل في لهفة:

– عاوز العربية دي.

ويشير إلى صورة لسيارة على الإعلان المعلق داخل المحل.

إنه يعرف ما يريده جيدًا.

– هاتله اللعبة عربية.. ولما يطلع الأكل اديهوله.

يبتسم الموظف وهو يقول:

– حاضر.

ألتفت إلى الطفل وأنا أقول:

– استنى هنا بقى ولما يطلع الأكل خده.. انت اسمك إيه؟

لا يلتفت إليَّ من الأساس.. فعيناه تتعلقان بتلك اللعبة البلاستيكية التي يعطيها إليه ذلك الموظف.. فيلتقطها بلهفة وهو يجيبني:

– اسمي «أحمد»..

يلتقط اللعبة بلهفة شديدة وكأنه حاز الدنيا.. ثم ينظر إليَّ بامتنان شديد.. وينطلق خارجًا من المطعم..

– استنى يا «أحمد».. طيب خد الأكل.

لم أتلقَّ ردًّا.. فقد ركض خارجًا إلى الشارع.. وفي لمح البصر اختفى «أحمد»!

أنظر إلى الموظف في حيرة.. ثم أوصيه أن يعطيه الطعام إذا عاد ثانية.. وأخرج من المطعم عائدًا إلى المقهى بابتسامة حائرة!

إنه يملك بالتأكيد من حصيلة التسول ما يمكّنه من شراء هذه الوجبة.. فلماذا انتظرني كي أذهب به إلى المطعم؟

دار هذا السؤال في ذهني وتحيرت في إجابته.. حتى تذكرت رد فعل الموظف الذي بالمحل حين رأى الطفل يدلف إليه معي.. إنهم يزجرون هذا النوع من الأطفال بكل تأكيد.. لا أعتقد أنهم سيعطونه الوجبة حتى إن دفع لهم ثمنها!

لم أنسَ هذا الموقف طيلة حياتي بعدها.. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أبحث عن «أحمد» في وجوه كل «أحمد»، الذين يفترشون شوارع المحروسة..

لم يكن يريد «أحمد» أن يتسول نقودًا.. لقد كان يريد أن يتسول طفولته!! فبالله عليكم إن وجدتم «أحمد» يومًا ما.. فاسألوه إن كان قد عاد إلى المطعم وأخذ وجبته أم لا.. واسألوه أيضًا إن كان قد فقد شبابه وكهولته كما فقد طفولته من قبل، أم تمكن من العثور على أحدهما!!

أسطورة البرنس

1

– انت يا بني انت واللي جنبك.. اطلعولي بره الطابور واستنوا هناك.

لم تكن المرة الأولى التي يضبطنا فيها الأستاذ «ثروت» نتحدث أثناء فعاليات طابور الصباح.. ولم تكن المرة الأولى أيضًا التي أشعر فيها بدقات قلبي يرتفع صوتها حتى أتخيل أن كل مَن حولي قد سمعوها.. فالأستاذ «ثروت» لا يرحم أحدًا!

– نهاركم اسود.. ده ما بيرحمش حد.

نطقها صديقي هامسًا وهو ينظر إلينا بشفقة لم يحاول إخفاءها..

أنظر إليه في غلّ واضح.. فقد تكلم كثيرًا هو الآخر ولكن لم يلحظه أحد.. يتبادر إلى ذهني أن أتقمص دور النذل وأبلغ الأستاذ «ثروت» عنه هو الآخر.. لكنني أتراجع وأنا أبسمل وأدعو الله أن يمر الأمر على خير هذه المرة..

لقد اكتفى في المرة السابقة أن ضرب كل واحد فينا عشر مرات بعصاه الرفيعة على أيدينا الباردة.. كم كان هذا مؤلمًا.. ولكننا حمدنا الله أن الأمر لم يتعدّ هذا العقاب إلى الفصل المؤقت من المدرسة أو إلى الفصل النهائي.. إنه يمتلك من القسوة ما يجعله يفعل ذلك دون أن يطرف له جفن..

يحتاج مُدرس المرحلة الثانوية تحديدًا أن يمتلك الكثير من الثقة بالنفس.. والأكثر من القسوة المحجوبة بقاموس لا بأس به من أنواع السباب التى لا يعاقب عليها القانون.. أو حتى يعاقب.. فلن يعاقب أحد الأستاذ «ثروت» بالتأكيد.. وذلك للسيطرة على هؤلاء المراهقين الذين يمتازوا بالشغب المتواصل.. فالفترة العمرية خطرة بالفعل.. وهذا المراهق المتمرد يحتاج إلى نوع معين من السيطرة يتطلب تلك المؤهلات كلها..

أقف أنا وصديقى المتهم بجانب منصة الإذاعة المدرسية.. أتأمل الأستاذ «ثروت» الذي يقف في حزم: جسمه النحيل المنتصب.. ووجهه الأبيض الذي يمتلئ بالتجاعيد التى تزداد بسبب العبوس الذي يصر على أن يضيفه إلى نظرته الصارمة.. نظارته الذهبية التى تلمع تحت أشعة الشمس الوليدة.. ويداه المعروقتان اللتان يعقدهما خلف ظهره ليضيف إلى مظهره هيبة إضافية..

إنه مدير المدرسة الثانوية الكبرى في تلك المحافظة الصغيرة.. وفي الوقت نفسه المدرس الأشهر في مادة الفيزياء – تلك المادة العسيرة – على مستوى المحافظة أيضًا.. الكل يعرف أنه لا يعانى مشكلات مادية على الإطلاق.. بل إنه يعتبر من الأثرياء في هذه البلدة الصغيرة.. بالإضافة إلى أنه يمتلك مركزًا للدروس الخصوصية في مادة الفيزياء يقوم بإعطاء الدروس الخصوصية به ويدير أعماله أحد أساتذة الخدمة الاجتماعية بالمدرسة!

الكل يخاف الأستاذ «ثروت».. والبعض، وأنا منهم، لا يحبه!!

2

نقف أمام الأستاذ «ثروت» أنا وزميلي المتهمان بتلك الجريمة الصغيرة.. ترتعد أطرافنا ونحن ننتظر رد فعل لن يقل عن الضرب بتلك العصا الرفيعة المؤلمة على أيدينا.. لا يبدو أنه يوم حظي..

ينظر إلينا في صرامة واضحة.. نظرات الغضب الممتزج بالحدة لا يمكنك أن تخطئها في عينيه..

- بقى عاملين اجتماع في الطابور؟ بترغوا حضراتكم زي الستات اللتاتة؟

أتأمل تلك العصا الرفيعة التي طالما زارتني في كوابيسي.. أشعر بالرعشة تجتاح أطرافي بالكامل.. ثم أقرر أن الحفاظ على صداقتي بهذا الزميل قد لا تعنيني إلى هذه الدرجة:

- حضرتك هو اللي كلمني كذا مرة وأنا بس كنت بقوله بطل كلام..

أتذكر المشهد الشهير للفنان محمود المليجي في فيلم الأرض.. وكيف أنه كان يتباهى بأنهم «كانوا رجالة ووقفوا وقفة رجالة» ثم أتذكر نهاية الفيلم ومشهد «سحله» على الأرض.. فأكتشف أنه لا داعي لـ«وقفة الرجالة» في هذا الموقف..

ينظر إليَّ صديقي في استنكار ثم يلتفت إلى الأستاذ «ثروت» فيصطدم بعينيه اللتين تنبعث منهما شرارة الغضب.. فيقرر أن يصمت تمامًا..

لا فائدة تُرجى من أي كلام.. هكذا أيقنت بعد أن نظر إلينا الأستاذ «ثروت».. ثم اقترب مني ببطء مرعب وهو يقول:

- افتح إيدك يا ولد!!

الكل يخاف الأستاذ «ثروت».. ولكنني أرتعد منه!

3

- أستاذ «سمير».. عاوز أدفع فلوس المجموعة بتاعة الشهر ده.

أهتف بها وأنا أُخرج ورقة مالية من فئة العشرين جنيهًا لأعطيها له..

يرفع الأستاذ «سمير» وجهه ويتوقف عن كتابة الجدول الذي دائمًا ما نراه منهمكًا في كتابته وتسطيره:

- استنى شوية يابني لحد ما أخلص.. أو اديهالي وانت خارج من الدرس.

- طيب.

لم يكن الأستاذ «ثروت» يتقاضى مبلغًا مرتفعًا كأجر للمجموعات التي كان ينظمها للطلبة.. فقد كان مبلغ عشرين جنيهًا شهريًا يعد رقمًا زهيدًا.. حتى في تلك الحقبة الزمنية البعيدة في منتصف التسعينات.. لكنه كان ينظم

مجموعات دراسية كبيرة العدد.. يمكن أن تصل إلى ثلاثين طالبًا في المجموعة الواحدة.. ما يجعلها مجزية في المجمل..

والواقع أن الطالب يستهلك وقتًا كبيرًا من حياته طوال دراسته منذ المرحلة الابتدائية وحتى انتهاء الثانوية العامة.. ليحسب لمدرسيه ما يتقاضونه نظير دروسهم الخصوصية.. بل إن الجدل الأكثر شهرة بين الطلبة يكون دومًا في تقدير ضمير هذا المدرس أو تلك المُدرسة.. فكونه يقوم بإعطاء الدروس الخصوصية يشكك كثيرًا في إخلاصه في التدريس في المدرسة.. كما أن المنظر العام يبدو مزريًا.. حين يتقاضى أي مدرس أجره من الطالب الذي يُفترض أن يخاف منه ويحترمه!

كنا نشعر أنها مدرسة مصغرة أكثر منها مجموعة دروس خاصة.. فالجدول تراه معلقًا على الحائط في مدخل تلك الشقة التي اتخذها في الدور الأرضي لعمارته الخاصة كمركز لتلك المجموعات.. كما أننا نجلس في حجرة تشبه الفصل الدراسي كثيرًا..

ومن الذي لم يلتحق بمدرسة الأستاذ «ثروت»؟

نقف في الشارع أمام مركز الدروس ننتظر خروج المجموعة التي تسبقنا.. الكثير من الأحاديث التي تدور بين الطلبة الذين يعانون كل مشكلات المراهقة.. التي تختلط بالكارثة التي تجتاح الجميع في هذه السن..

والتي تُدعى الثانوية العامة..

كم كانت تلك السنة حملاً ثقيلاً على الجميع.. فهي عنق الزجاجة الذي ينبغي أن تعبره لتصل إلى الخطوة الأولى في بناء مستقبلك.. المشكلة أنها تأتي في فترة زمنية لا يستطيع الطالب فيها أن يستوعب مدى خطورتها على مستقبله بالكامل.. فهي تأتي في الوقت الذي يتمرد فيه المراهق على كل شيء.. فيكون من الصعب أن تسيطر عليه.. أن تجعله يدرك أنها عنق الزجاجة بالفعل..

تبدأ مجموعات الطلبة في الخروج من الباب الضيق.. فتدرك أن الوقت قد حان لتدخل أنت وأقرانك.. إنه درس الفيزياء التي لا يحبها أحد.. سوى الأستاذ «ثروت» فقط..

أدلف إلى الحجرة المخصصة للدرس.. أجلس في مقعدي المعتاد في الركن الأيمن الخلفي.. إنه المكان الذي أظن أنه يمكّنني من الاختفاء فلا أتعرض للأسئلة المفاجئة التي يسألها في أثناء الدرس.. ليس مستحيًا أن تجيب عن سؤال في درس الفيزياء.. فلم أكن أستسيغ ذلك العلم العجيب.. وما زلت..

يقف الأستاذ «ثروت» في شموخ في منتصف الحجرة.. لطالما بدا واثقًا وهو يشرح طلاسم هذا العلم العسير.. إنه يجيد مهنته بالفعل..

- وطبعًا لما نحب نجيب معامل السرعة.. نسأل «محمد» اللي

مستخبي ورا.. قول يا «محمد»..

لقد رآني.. إنه يمتلك أكثر من عينين بالتأكيد..

- ما هو حضرتك أنا عارف.. بس يا ريت حضرتك تقول علشان باقي الطلبة تستفيد..

تضج القاعة بالضحك.. الكل يعرف أنني لا أعرف.. ولكنه لا يبتسم معنا.. ينظر إليّ في صرامة.. ثم يستدير إلى اللوحة الملساء المعلقة على الحائط ليستمر في الشرح..

ينتهي الدرس.. فأخرج مسرعًا لأدفع المبلغ للأستاذ «سمير».. فأجده يهمس بصوت منخفض لأحد الطلبة في المجموعة التي تلينا:

- الأستاذ «ثروت» بيقولك انت مش هتدفع فلوس المجموعة تاني.. دي هدية منه..

- بس أنا معايا الفلوس والله يا أستاذ.

- ماليش دعوة.. هو اللي قال كده.. ابقى قوله.

أتعجب لهذا الحوار.. لكنني أتأمل هيئة الطالب الذي يتحدث.. يبدو أنه رقيق الحال.. هل يعفي الأستاذ «ثروت» الطلبة رقيقة الحال من دفع النقود؟

أسأل الأستاذ «سمير» في فضول قاتل.. ولكنه يبتسم ابتسامة صغيرة..

ولا يجيب:

- خليك في حالك يا «محمد»!!

إنه يفعلها بالفعل.. هل هناك من هم مثله حتى الآن؟

لا أحب الأستاذ «ثروت».. ولكن يبدو أنني لن أستطيع أن أكرهه.

4

- عرفتوا اللي حصل؟ «عمرو» و«حسام» احتمال يترفدوا من المدرسة نهائي.

كان خبرًا جديرًا بإثارة اهتمام الفصل بالكامل.. فقد كان فصل أحد الطلبة من المدرسة حدثًا جللاً.. كنت أعرف أن كلاً من «عمرو» و«حسام» يتميز بالرعونة والتمرد الشديدين.. إنهما من القسم الأدبي.. وقد رسب كل منهما في العام الماضي في امتحان الثانوية العامة.. كما أنهما يقومان بالكثير من عمليات النصب الصغيرة على معظم الطلبة.. فلم يسلم طالب منهما تقريبا.. بدءًا من اقتراض النقود من الطلبة وعدم ردها.. وانتهاءً ببيع بعض المستلزمات الدراسية للطلبة بأسعار مبالغ فيها.. باختصار: إنهما مشروعان لنصابين من الطراز الأول..

لم يكن خبر فصلهما مستنكرًا من معظم الطلبة.. ولكن كان الحوار يدور حول السبب الرئيسي لهذا الفصل..

- بيقولوا إنهم نصبوا على صاحب المكتبة اللي قدام المدرسة وأخدوا منه حاجات كتير وباعوها وما دفعوش تمنها..

نطقها صديقي العالم ببواطن الأمور في ثقة.. والواقع أنني لطالما بحثت ع الناس اللي بيقولوا، الذين يعرفون كل شيء.. والذين ينقل صديقي ما يقولون لنا فلم أجدهم أبدًا..

- المشكلة إنهم كانوا ماضيين شيكات.. والراجل جاب الشيكات النهارده للأستاذ «ثروت» وبيهدد إنه هيرفع عليهم قضية وهيتسجنوا..

- يا نهار اسود!!

- عادي يابني.. دي نهاية متوقعة..

أتأمل ملامح صديقي الذي يقصّ علينا هذا الخبر.. ثم أتخيل ما سوف يحدث لهما من الأستاذ «ثروت» أولاً.. ليست لديّ ذرة من الشك في أنه سيجعلهما عبرة في المدرسة.. قبل أن يقوم بفصلهما.

دار في ذهني سؤال عابر فسألت صديقي سريعًا:

- هي الفلوس اللي عليهم كام؟

- بيقولوا سبعة آلاف جنيه!!

وقعت الإجابة على رأسي كالصاعقة.. فالمبلغ كان كبيرًا للغاية بالنسبة لهذا الوقت.. بل إنه كبير أيضًا بالنسبة لأي طالب في المرحلة الثانوية

عمومًا..

أعرف أن كليهما يتيم الأب.. وأنهما لن يستطيعا دفع هذا المبلغ مهما حاولا.. فالحالة الاجتماعية والمادية لكل منهما منذ وفاة والده ليست على ما يرام.. كما أعلم جيدًا أن أهلهما قد فقدوا الأمل في صلاح حالهما منذ فترة ليست بالقصيرة.. ولطالما دارت أخبار بين الطلبة عن أن والدة «حسام» قد أتت إلى المدرسة تطلب من المدرسين أن يعاقبوا ولدها بقسوة ولكن بلا جدوى.. إنها نهايتهما بكل تأكيد..

أستكمل اليوم الدراسي الرتيب.. وأنتظر الخبر الذي نتوقعه جميعًا.. ولكن اليوم يمر.. بل وتمر بعده أيام ولا نسمع أي نوع من أنواع العقاب.. ماذا حدث؟

5

أنتبه حين أرى «عمرو» يسير في فناء المدرسة في أثناء الفسحة في هدوء.. الحزن يبدو على ملامحه.. ولكن ما يجعلني أنتبه ليس الحزن.. وإنما تلك النظرة التي أراها في عينيه اللتين كانتا تمتلئان بالتحدي والاستخفاف.. إنها نظرة هادئة وودودة!

أتوجه إليه في توجس وأنا أسأله:

- إيه يا «عمرو»؟ هو بجد انت و«حسام» كان عندكو مشكلة مع

الراجل صاحب المكتبة اللي قدامنا؟

ينظر إليّ في هدوء.. ثم يبتسم ابتسامة هادئة وهو يجيب:

- أيوه.. كان علينا شيكات.

- وبعدين؟ إحنا سمعنا إن الراجل جه المدرسة ودخل للأستاذ «ثروت» وانكم هتترفدوا.

- حصل.. بس ربنا ستر.

- ستر ازاي؟

نظر إليّ نظرة طويلة.. ثم نظر إلى الفراغ في الناحية الأخرى وهو يهمس في هدوء:

- عارف يا «محمد».. أنا لو كنت بعت هدومي ما كنتش هعرف أدفع الفلوس دي للراجل..

- أمال مين اللي دفعها؟

كاد فضولي يقتلني وهو يصمت فترة لا بأس بها.. قبل أن يستدير إليّ ويجيبني:

- الأستاذ «ثروت»!!

أنظر إليه في استنكار غير مصدق:

- الأستاذ «ثروت» دفع الفلوس دي كلها؟

- تخيل؟ وجابني أنا و«حسام» المكتب وقالنا إنه هيدفع الفلوس للراجل وهيعتبرها دين علينا لحد ما نتخرج ونشتغل ونبقى نسدده بالقسط!

- معقولة؟

- أنا برضه ما كنتش مصدق.. الراجل ده طلع جدع أوي.. تخيل إنه سألنا عن المواد اللي مش فاهمينها وراح جاب المدرسين بتوعها وقالهم يدونا مجموعات تقوية فيها في الفسحة.. والأستاذ «وجيه» بتاع الفلسفة ضمنا لمجموعة عنده ومن غير فلوس!

أتأمل وجهه الذي تغيرت ملامحه.. فقد أدركت السبب في هذا التغير..

أترك «عمرو» ليكمل طريقه وأنا أفكر.. لقد أنقذ مستقبلهما بالفعل..

لم أكن أحب الأستاذ «ثروت».. ولكنني أصبحت متيمًا به!

ثمن الصراحة

1

- «محمد».. إحنا بكره «أوت» من المدرسة.. جاي معانا ولا إيه؟

نطقها صديق المرحلتين الابتدائية والإعدادية.. الذي كان رفيقًا لي في كل لحظاتي السعيدة والمؤلمة على السواء.. فقد كان يتميز بالشقاوة الشديدة.. وكنت مسالمًا كالبنات.. فكان هو الباعث الأول والمحرض الأكبر على أي فسق أو خروج على النظام..

كان «أشرف» ضئيل الجسم.. حاد الملامح.. خفيف الظل لدرجة كبيرة.. وربما كانت خفة ظله هي السبب الأساسي لحبي له منذ الطفولة.. فقد كنا من فئة اجتماعية متقاربة.. كما أن والده – سيادة المستشار – صديق لوالدي منذ فترة بعيدة.. فكانت صداقتنا حتمية.. بل ومقبولة ومحببة لكلتا العائلتين.. كنا لا نفترق تقريبًا حتى في شهور الصيف.. فقد كان النادي الصغير الذي يقع في مدينتنا هو مكان اللقاء اليومي..

إنه زميل «التختة» الذي يظل في ذاكرتك حتى ترى خصلات الشعر الأبيض في رأسك.. لم تكن اهتماماتنا الدراسية مشتركة.. فكنت قد قررت منذ المرحلة الابتدائية أن أصير طبيبًا.. وكان هو يعرف طريقه جيدًا.. فوالده

مستشار شهير.. سيلتحق بالقسم الأدبي في المرحلة الثانوية.. ثم سيلتحق بكلية الحقوق ليسلك السلك القضائي.. لم يحاول أن يخرج عن هذا السيناريو مطلقًا.. فهو الابن الوحيد لوالده بعد ابنتين.. «الحيلة» كما كان يحب أن يصف نفسه دائمًا..

لقد تزاملنا في الفصل نفسه.. بل و«التختة» نفسها حتى الصف الأول الثانوي.. ثم افترقنا بعد أن دخل القسم الأدبي ودخلت أنا القسم العلمي.. ولكننا حافظنا على صداقتنا في «الفسحة».. وبعد المدرسة..

ألتفتُ إليه في سرعة وأنا أهتف:

– طبعًا المرة دي أنا معاكم.. انتو رُحتوا المرة اللي فاتت وسبتوني لوحدي.. بس اشمعنا بكرة؟ ما تخليها الخميس.

أجابني باستنكار:

– يابني مفيش حد يـزوّغ الخميس.. انت عبيط؟ الخميس يوم حلو وبعديه أجازة.. اللي عاوز يزوغ يزوغ في يوم رخم زي التلات.. المهم اخلص، إحنا هنزوغ بكرة.. معانا خلاص؟

أصمت فترة قصيرة وأنا أفكر سريعًا.. ثم أجيبه بحسم:

– خلاص معاكم..

كنا قد وصلنا للصف الثالث الثانوي.. ويتميز طلبة الثانوية العامة –

نظرًا لظروف التعليم في بلادنا – أنهم لا يكترثون بالدرسة تقريبًا.. بل إن كثيرًا منهم لا يذهب إلى المدرسة يوميًّا إلا ليحافظ على نسبة أيام الغياب التي تمكّنه من دخول امتحان آخر العام.. فالكل يعتمد على الدروس الخاصة التي نحصل عليها في كل المواد.. فكانت المدرسة مكانًا للالتقاء والترفيه عن النفس فقط.. فالكل يبدأ يومه بعد المدرسة بالتجول في مراكز الدروس الخاصة حتى المساء.. ثم يبدأ الاستذكار بعد العودة إلى البيت..

كان «أشرف» ومجموعة أخرى من الطلبة قد اعتادوا أن «يزوغوا» من المدرسة في بعض الأيام.. ونظرًا لارتفاع سور المدرسة.. والخطر الذي يحيط بعملية القفز من فوق السور.. فقد تفتّق ذهنهم عن فكرة طريفة.. فقد كانوا يخرجون من بيوتهم في ميعاد المدرسة المعتاد في الصباح.. ولكنهم لا يدخلون المدرسة من الأساس.. ولكن يذهبون إلى إحدى الحدائق العامة.. ليلعبوا كرة القدم حتى موعد الانصراف من المدرسة.. ليعودوا لبيوتهم دون أن يعرف أهلهم عن هذه «التزويغة» شيئًا..

لقد فعلوها أكثر من مرة دون أن يعرف أحد شيئًا.. ولم أكن معهم في المرات السابقة.. ولكنني أرغب أن أذهب معهم هذه المرة.. سيكون الأمر مثيرًا بالتأكيد..

2

أقف أمام دولاب ملابسي في الصباح لأنتقي زيًّا مناسبًا.. فلطالما أحببت

الملابس الجديدة منذ طفولتي.. أخرج قميصًا أزرق اللون.. ثم أضعه على السروال الأمريكي الجديد الذي ابتاعه لي أبي من الخارج.. إنه يبدو ملائمًا.. يبدو زيًا متأنقًا أكثر من اللازم بالنسبة للعب الكرة.. ولكن اليوم فرصة لأرتدي ما أريد من ملابس.. فمدرستي صارمة للغاية بشأن الزي المدرسي الموحد.. وما زلت أذكر عقابي عندما جرؤت على ارتداء قميص مخالف في اللون..

أرتدي ملابسي في سرعة ونشاط.. ثم أخرج من حجرتي الصغيرة لأجد أمي تنظر لي في تعجب:

- إيه اللي انت لابسه ده؟ مش لابس لبس المدرسة ليه؟

تعلم أمي جيدًا أن مدرستي تتميز بالصرامة الشديدة في الالتزام بالزي المدرسي.. فتعجبت من أنني سأذهب إلى المدرسة بهذا الزي المخالف تمامًا..

- عادي يا ماما هيعدي.. زهقت من لبس المدرسة.

تنظر أمي لي وهي تحاول أن تخترقني ببصرها.. ثم تتغير نبرتها وهي تسألني:

- لا طبعًا مش هيعدي وانت عارف.. انت رايح فين بالظبط؟

أنظر إلى عينيها ثم أكتشف فشلي في إيجاد أي مخرج من هذا الحوار.. فأقرر أن أجيب بصراحة:

- بصراحة، ومن غير ما تزعلي مني، النهارده «أوت».. مش هدخل المدرسة..

تتسع عيناها في استنكار ممزوج بالدهشة:

- «أوت» يعني إيه؟ مش رايح المدرسة ليه إن شاء الله؟

- النهارده هنزوغ أنا وأصحابي!!

لم يكن الاعتراف مستساغاً بالنسبة لها.. فلم تتخيل أن أجيبها بهذه الإجابة.. فتقف لحظة مذهولة.. ثم تسألني باهتمام:

- يعني إيه بقى الكلام ده؟

- مفيش حاجة يا ماما.. الفكرة إن أصحابي هيزوغوا النهارده كلهم.. فقلت أزوغ معاهم.

- انت بتهرج؟ لأ طبعًا!!

- والنبي يا ماما علشان خاطري.. مرة واحدة أروح معاهم.. مفيهاش حاجة!

تنظر إلى نظرتي المتوسلة.. ثم تضرب كفًا بكف وهي تهتف:

- يابني انت مش عارف مصلحتك؟ تزوغ إيه؟ ده انت في ثانوية عامة.. عارف يعني إيه؟ وبعدين مين أصحابك دول؟ «أشرف» معاكم طبعًا..

أنظر إليها في خجل ثم أطرق وجهي للأرض وأنا أجيب بصوت

منخفض:

- «أشرف» هو اللى بينظم الموضوع أصلاً كل مرة..

تنظر أمى إلىَّ في صمت.. ثم تجيب في هدوء وهى تهز رأسها:

- ماشى.. روح يا «محمد».. أنا لىّ كلام تانى لما يرجع أبوك النهارده.

أتجاهل تهديدها في سعادة.. ثم أنقض عليها لأقبلها في سرعة وأقول:

- متشكر يا حاجة.. ربنا يخليكى لىّ يا أحلى ماما في الدنيا.

كان سماحها لى بالخروج، بالإضافة إلى اعترافي، قد أزاح حملاً ثقيلاً عن كاهلى.. فلم أكن أحب أن أخفى عنها شيئًا.. كما أننى من المتفوقين في المدرسة دومًا.. فكان رصيدي يسمح عندها.

تسألنى في عتاب ساخر:

- وهتروحوا فين بقى إن شاء الله؟

- هنروح الجنينة الكبيرة اللي في آخر شارع المدرسة.. هنلعب كورة.

أتناول حقيبة المدرسة في يدي وأنطلق إلى الباب.. ولكنها تستوقفنى في سخرية:

- ولزمتها إيه بقى الشنطة؟

ألتفت إليها وأنا أجيب:

- الشنطة مفيهاش كتب يا ماما.. الشنطة فيها الكورة!!

3

ألمح «أشرف» يسير وسط مجموعة من زملاء فصله.. فأهتف بصوت مرتفع:

- «أشرف».. استنى..

ثم أزيد من سرعة سيري حتى أصل إليه.. فينظر إليّ في تعجب وهو يهتف في استنكار:

- إيه اللي انت لابسه ده؟

- عادي.. فيه إيه؟ هو مش النهارده «أوت»؟

يزداد استنكاره وهو يجيب:

- ماشي.. بس انت خرجت ازاي من البيت أصلاً؟

أبتسم وأنا أجيب:

– عادي.. أنا قلت لماما وأنا نازل..

تتسع عيناه وهو يصرخ:

- إيه؟ الله يخرب بيتك.. طب ما هي هتقول لأبوك وأبوك هيقول لأبويا يا متخلف.

أرتبك قليلاً.. فلم يخطر ببالي هذه الدائرة.. ولكنني أجيبه في سرعة:

- لا ما تخافش.. أنا لما أرجع هاقولها ما تقولش لحد..

لم تكن الإجابة مقنعة حتى بالنسبة لي.. فقد كنت أعرف أمي جيدًا.. لا بد أن أبي قد عرف الآن فعلاً.. كما أن والد «أشرف» سيعرف عاجلاً أم آجلاً..

ألمح همهمات مضطربة بين زملاء «أشرف».. فأسمع من بينها من يحدثه:

- آدي صاحبك يا عم اللي انت أصريت ييجي معانا.. هيودينا كلنا في داهية.

- إيه النظام يا «أشرف» دلوقت؟ هنرجع ولا إيه؟

يحمر وجهي وأنا أعجز عن الرد.. فينظر إليّ «أشرف» في عتاب غاضب:

- ماشي يا «محمد».. بس عارف لو أبويا عرف.. انت حر!

- مش هيعرف إن شاء الله.. يلّا بقى.

ثم أسير أمامهم في سعادة نحو الحديقة وأنا أستطرد:

- عملتوا الفرق ولا لسّة؟

4

تصاعد الغبار من الأرض في الهواء ليخلق شبورة صناعية اعتدناها حين

يكون ملعب الكرة مغطى بالتراب مثل هذا الملعب الفقير.. وتصاعدت في الوقت نفسه أصوات اللاعبين الذين ينادون بعضهم في صيحات حماسية:

- باصي يا عم.. انت مش عارف تلعب على فكرة.

- انت اللي ما بتعرفش أصلاً.. الكورة كانت معاك وضيّعتها قدام الجون.

كان الملعب حماسيًا إلى درجة كبيرة.. فقد احتدمت المباراة التي بدأناها.. والفريقان متعادلان بهدف لكل منهما.. قطرات العرق تتساقط لتغرق وجوهنا التي يغطيها التراب المنبعث من أرض الملعب الرملية.. فتمتزج به لتنتج خليطًا اعتدناه في أثناء لعب الكرة..

إنه يوم ممتع.. لا شك في هذا.. المشكلة الوحيدة أن الملابس قد اتسخت تمامًا.. سوف تعنفني أمي بالتأكيد.

تتعلق عيناي بسيارة زرقاء من نوعية شائعة للغاية في هذا الوقت.. تقف أمام الحديقة في هدوء.. ثم ألمح بابها الأمامي ينفتح.. ليهبط منها رجل قصير القامة ممتلئ البطن.. يلمع رأسه الأصلع تحت أشعة الشمس.. أعرف جيدًا هذا الرجل..

ينظر إلينا بعينين تبحثان عن شيء ما.. فتلتقي عيناي عينيه.. لقد رآني.. يشير إليَّ في عصبية.. فأجيبه بإيماءة سريعة.. ثم أركض وأنا أهتف:

- «أشرف».. «أشرف»..

يستدير إليّ «أشرف» في عصبية وهو يصيح:

- عاوز إيه؟

أشير إليه برأسي وأنا أجيبه بصوت خفيض:

- أبوك!!

تغيّر لونه وهو يستدير بدوره ليجد أباه يشير إليه في غضب واضح.. لا يبدو أن أمي أضاعت وقتًا هذا الصباح..

نذهب إليه معًا في هدوء.. حتى نصل إلى السيارة.. فينظر إلينا في غضب وهو يقول:

- اركبوا يا بهوات انتو الاتنين.

أنظر إلى ملامحه في خوف.. ثم أتردد وأنا أجيبه:

- طب أجيب الشنطة.. ثواني يا عمو.

يتجاهلني تمامًا وهو يرمق «أشرف» بنظرة حادة.. ثم يدلف إلى السيارة ويغلق بابها في غضب واضح.

أركض لإحضار شنطتي وشنطة «أشرف».. وأفتح الباب الخلفي للسيارة وأركب سريعًا..

لم ينطق أحد بحرف واحد طوال الطريق إلى منزلي الذي ذهبنا إليه أولاً لتوصيلي.. فما إن هبطت من السيارة حتى استدار «أشرف» إليَّ وأنا أغلق الباب الخلفي وهو يقول:

- طب هكلمك بالليل بقى.

- اخرس يابن الكلب!!

كان والد «أشرف» وكأنه ينتظر أن ينطق أحدنا ببنت شفة لينفجر في وجهنا..

- أنا ما عرفتش أربيك يابن الكلب.. أنا هربيك من أول وجديد!!

أنسحب سريعًا من أمامه حتى لا أحصل على نصيبي أنا الآخر.. فلم أرَ والد «أشرف» غاضبًا في حياتي إلى هذه الدرجة.

لن يكون اليوم جيدًا بالنسبة لـ«أشرف» بالتأكيد..

أدلف إلى المنزل في هدوء.. ثم أنظر إلى أمي التي بادرتني بدورها:

- بابا «أشرف» جالكم.. صح؟

- آه.. متشكر أوي يا ماما على الواجب ده.

- العفو يا حبيبي، على إيه؟

أنظر إليها نظرة طويلة.. ثم أدلف إلى حجرتي دون كلمة أخرى..

لم يقص «أشرف» لأحد ما حدث في هذا اليوم حينما عاد إلى منزله حتى

أنا.. كما لم أجرؤ على سؤاله مطلقاً..

ظلت العلاقة متوترة بيننا فترة لا بأس بها.. فقد امتنع عن التحدث إليَّ فترة.. وحتى حين عاد، لم يعد يكلمني بأريحية كما كان يفعل.. كما لم يغب يومًا عن المدرسة بعدها..

لقد خسرت صديقي في الأغلب.. ولكنه كسب نفسه بكل تأكيد.


قبل النهاية

ربما كانت محاولتي لسبر أغوار الشخصية الإنسانية ليست كاملة.. فما زال هناك الكثير من الأحداث التي لم أسردها.. أو ربما لم أتذكرها.. ربما كان هناك كثير من الشخصيات التي كان يجب أن أذكرهم.. فقد أثَّروا في هذا الطفل الذي رأيتموه عبر الصفحات السابقة.. حتى كبر وأصبح مراهقًا.. ولكن يبقى السؤال الذي يطرح نفسه بشدة:

هل رأيت نفسك؟ هل تذكرت ما كنت عليه وأنت صغير تلعب في فناء مدرستك الابتدائية؟ هل تذكرت مدرس اللغة العربية؟ هل تذكرت دروس الثانوية العامة وأيامها؟

أعلم أن كثيرين سيجيبون بـ«نعم».. والإجابة هنا لا تعني براعة مني في الوصف أو السرد بقدر ما هي إثبات لحقيقة واحدة.. أننا جيل مختلف!!

نعم.. إننا نختلف كلية عن هذا الجيل الذي نراه من حولنا الآن.. بل وسنظل على اختلافنا حتى مع الأجيال التي ستليه..

إننا جيل تربى بشكل متشابه.. ولا أريد أن أكون مُبالغًا لأقول إننا تربينا بصورة متطابقة.. نعم.. فكلنا شاهدنا البرامج نفسها على شاشة التليفزيون.. وكلنا لبسنا النوعية نفسها من الملابس.. كلنا تعلمنا المناهج نفسها.. ودرسنا العلوم نفسها.. كلنا لدينا أستاذ «رمضان» ما.. وكلنا هربنا من مدرستنا يومًا ما لنلعب الكرة..

إن الفرق بين جيلنا والأجيال التي تلتنا حتى الآن، هو أنهم يملكون حق

الاختيار.. يملكون أن يختاروا بين مشاهدة تلك القناة التليفزيونية أو غيرها.. يملكون أن يختاروا أن يرتدوا ذلك الحذاء الكاوتشوك «اللي بينور» أو لا يرتدونه.. يملكون من الألعاب الإلكترونية ما يجعلهم يختارون ماذا يلعبون.. بينما كنا لا نملك هذا الترف.. فقط كان أحدنا يمتلك ذلك الجهاز الأسود الذي كان يُدعى «الأتاري» ويستضيفنا لنلعب عليه «بالدور»..

لا أدّعي أننا أفضل منهم.. أو أنهم أكثر وعيًا منّا.. لكنني فقط أردت أن أسجل هذه الذكريات.. فهي الشاهد الوحيد على ما مررنا به من أحداث..

كلنا انتظرنا «ماما سامية» ودميتها الساذجة التي كنا، لسبب ما لا يعرفه أحد، مقتنعين أنها تتحدث بذلك الصوت الذي كان يثير الضحك.. كلنا انتظرنا لنعرف ما الذي سيحدث لـ«هند» حين رأت ذلك اللص الذي قُتل في الشقة المجاورة للدكتور «نعمان»..

إنها محاولة بسيطة لجعلك تتذكر ما كنت قد نسيته من طفولتك.. أو لسبر أغوار شخصية جيل كامل تربّى بشكل متشابه ومتواز..

الطريف أننا حين نقابل بعضنا لا تجد الحوار يدور في أي موضوع معاصر.. إلا ويعود بنا الحديث عن ذكرياتنا التي ما زالت باقية في أذهاننا.. ربما ننسى بعضها.. وربما نذكّر بعضنا بعضًا بالباقي منها.. ولكننا في كل الأحوال نكتشف تلك الابتسامة التي تلوح على وجوهنا ونحن نتحدث..

إنها «النوستالجيا» كما وصفها الأطباء النفسيون.. إنها مرض الحنين إلى الماضي.. الذي لا نجده إلا جميلاً.. مهما حمل لنا ذكريات ليست بالجيدة!

إن التأمل في تكوين الشخصية لهذا الجيل ليس بالأمر السهل.. فحتى مع تشابه المؤثرات التي مرت علينا.. إلا أن تأثير تلك الأحداث قد ألقى بأثر مختلف على كل واحد منا.. فمنا من استطاع التعايش مع ظروفه التي ألقت به الأقدار بينها.. ومنا من رفضها وحارب من أجل أن يصبح له مستقبل أفضل.. ومنا من استسلم لها.. فتركها هي تشكله كيفما تريد..

لقد كان الكتيب الذي بين يديكم محاولة بسيطة لتروا كيف كنتم.. كانت محاولة لسبر أغوار نفسك التي نسيتها.. ربما تذكرت كيف كنت صغيرًا ومراهقًا.. فتبتسم وأنت تقارن بين الماضي وبينك الآن.. سوف تجد البعض منكم يرى أنه قد أصبح أفضل كثيرًا.. وستجد البعض الآخر يرى أنه قد خسر تلك البراءة التي تشع من بين السطور.. سوف تجد البعض يتذكر أساتذته القدامى الذين نسيهم في زحام الواقع الذي نعيشه.. ربما تجرأ البعض الآخر وبذل جهدًا للبحث عنهم..

ومع اختلاف ردود فعل الجميع حين تقع أعينهم على تلك السطور.. لن تجدهم يختلفون في أمر واحد.. أنهم جميعًا سيبتسمون تلك الابتسامة الخفيفة.. ويترحمون على هذا الماضي الذي ولّى!



الفهرس

* * *





بعد الفسحة

حكايات قديمة... قبل ما تبقي بريك!

انه كتاب يذكرك بأصدقاؤك الذين قد اسقطهم من ذكرياتك.. فتبدأ في النظر في الفراغ و انت تسترجع ذكرياتك التي هي اجمل ما مر بك بكل تأكيد.. سوف تستعيد لحظات كنت قد نسيتها بالكامل.. و سوف تبتسم وانت تتسائل اين ذهب هؤلاء الأوغاد الذين كانوا في وقت ما اقرب الناس اليك..

انه كتاب يذكرك بماما نجوي و صديقها "بقلظ".. أو ربما ببابا ماجد.. قد تشم بين صفحاته رائحة نقود بنك الحظ الملونة.. او تسمع من يهتف في اذنك انه " مازنجر".. قبل ان ينطلق..

انها "نوستالجيا " لطيفة ..لا تملك و انت تقرأها الا ان تبتسم.. فالزمن الجميل حتما هو ما مضي.. حتي ولو كان القادم أجمل "

د. محمد صلاح البدري

